سلسلة الدروس العلمية

صفوة الدروس في تزكية النفوس

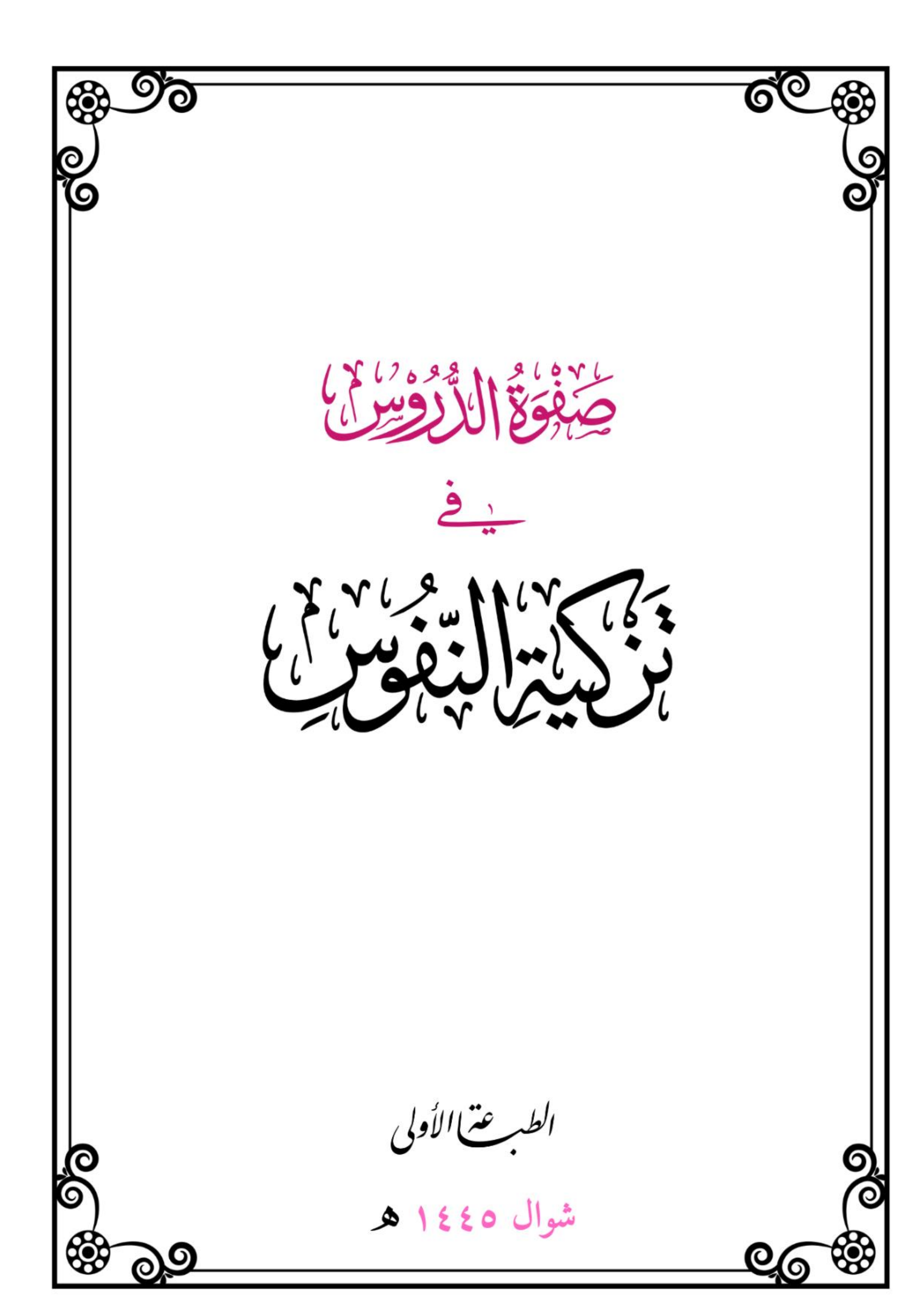
أعدها

أبو محمد حسن بن حامد

حفظه الله ورعاه

مكتبة





صفوة الدروس

في

تزكية النفوس

الطبعة الأولى

شوال ١٤٤٥ هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ؛ أما بعد :

فإن المسلم في طريق سيره إلى الله وفي سبيل تحقيقه لما خُلق له من عبودية ربه وطاعته محاطٌ بعوائق وموانع كثيرة ؛ منها شياطين الإنس والجن ودنيا غرّارة قد تزينت لتفترس وتُهْلِك مع هوى مُردٍ وأنفسٍ لا تواتيك على الطاعة والخير وتنزع إلى المعصية والشر إلا ما شاء الله وأزّمة الخير بيد الله :

وسَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيْقَ فِيْهَا وَأَخْلِصْ فِي السُّؤَالِ إِذَا سَأَلْتَا
وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لهُ اعتِرَافاً بِمَا نَادَاهُ ذُوْ النُّونِ بنُ مَتّى
ولازِم بابَهُ قَرْعاً عَسَاهُ سَيَفْتَحُ بَابَهُ لَكَ إِنْ قَرَعْتَا
وأَكْثِرْ ذكرَهُ في الأَرْضِ دَأباً لِتُذْكَرَ في السَّماءِ إِذَا ذَكَرتا
وَلَا تَقُلْ الصِّبَا فِيْهِ مجَالٌ وَفَكِّرْ كَمْ صغيرٍ قد دفَنْتَا

ومتى لقي العبد توفيقاً من ربه وأقبل على مجاهدة نفسه وإصلاحها قطع طريق سيره إلى الله ﷻ على أسرع من الريح. وهذه المجاهدة والإصلاح هو منهج تزكية النفس الذي جاء به الإسلام.

وقد ألقينا دروساً في ذلك؛ اعتنى بتفريغها أخونا «أبو عبد الله وليد بن عبد الله البدوي» -جزاه الله خيراً-؛ فراجعتها وأعملت فيها قلم التصحيح ما استطعتُ، ودفعتها إلى الأخ «أحمد مفتي أديب» -أكرمه الله- فجهّزها للنشر. وهذه إبرازة أولى لهذا العمل سائلين من ربنا التوفيق والسداد.

كتبه : أبو محمد حسن بن حامد

الرياض، السعودية

٨ شوال ١٤٤٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كلام الله ﷻ وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أما بعد...

فقد خلق الله ﷻ الإنسان؛ وجعل آباءه آدم، ومن تناسل بعده جعلهم خلفاء في هذه الأرض، وكرّم الله ﷻ الإنسان على سائر المخلوقات. فقال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠ ﴾ [الإسراء: ٧٠]. فضلهم الرب ﷻ على كثير من المخلوقات.

وهذا الإنسان مركب -كما هو محل اتفاقٍ- من روح وجسد، وقد وقع نزاع بين العلماء؛ أهي النفس، أم بينهما تغاير؟ يعني هل النفس والروح اسمان لمسمى واحد، أم ثمة فرق بين الروح والنفس، وفي المقام الذي نتحدث فيه لا يظهر فرق بين الروح والنفس.

إذًا؛ الإنسان مركب من جسد، وهذا الجسد حياته التي قدّرها له ربه ﷻ موقوفة على غذاء يتمثل في أكل وشرب.

فالذي لا يأكل ولا يشرب سيموت؛ وترك الأكل الشرب بالكلية من المحرمات فلا يجوز لأحد من النـاس أن يترك الأكل والشرب بالكلية؛ لأنه بذلك يكون ساعيًا في إهلاك نفسه.

إذًا غذاء الجسد هو الطعام والشراب. الروح أيضًا والنفس لها غذاء، وكما أن الغذاء يتنوع ويختلف؛ فمن الغذاء الذي يحيى به الجسد ما هو غذاء مثالي، ومنه ما هو غذاء تكون معه حياة، لكنه ليس غذاءً مثاليًا، وقد يكون ثمة غذاء، لكنه مضر، ومهلك. وأنتم تعرفون أن الأطباء إذا أصيب أحد من الناس بمرض نصحوه بأغذية، وأطعمة، وأشربة ومنعوه من أغذية، وأطعمة، وأشربة، يقولون: تغذى من كذا، وكذا، وكذا، وامتنع من الغذاء الفلاني، لأن الغذاء الفلاني الذي يستفيد منه غيرك تتضرر أنت منه، كذلك هذه النفس والروح لها غذاء. الغذاء الذي تحيا به الروح، وتسمو به الروح هو العلم النافع والعمل الصالح. وعند بعض العلماء ربما صارت هذه النفس والروح أفضل من الملائكة بسبب الغذاء الذي تغذت به.

والمؤسف؛ أن الناس يعنون، ويعتنون، ويهتمون بشأن غذاء الجسد اهتمامًا، واعتناءً عظيمًا، ويهملون إلا من –رحم الله– ﷻ غذاء الروح؛ ولهذا تموت الروح، وتموت النفس حتى يستحوذ عليها الشيطان ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ [المجادلة: ١٩]. وكما أن الجسد يضعف ويمرض؛ فكذلك النفس والروح تمرض وتضعف.

وموضوعنا عن تزكية النفس، وسيأتي معنا في الأكتوبة التي اخترناها لنقرأها، ونعلق عليها شيء من جوانب أهمية تزكية النفس.
إذا أردت أن تحظى بالنعيم الذي خصّ الله ﷻ به المؤمنين في الدنيا والآخرة فعليك بتزكية النفس.

❊ ❊ ❊

فصل

ربنا ﷻ يقول في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾ ﴾. [الأحزاب : ٧٢- ٧٣].

اللهم إنا نعترف لك بالضعف، ونعترف لك بالنقص، ونعترف لك بالقصور، ونعترف لك بالذنوب، اللهم إننا مفتقرون إلى توفيقك وعونك وهدايتك وإعانتك؛ اللهم إياك نعبد وإياك نستعين..

هذه الأمانة هي تقوى الله ﷻ وهي الأوامر والنواهي؛ عرضها الله ﷻ على هذه المخلوقات العظيمة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ [الأحزاب: ٧٢] ؛ ونحن نؤمن أن عرض الأمانة على هذه المخلوقات كان عرضًا حقيقيًا فيه خطاب، وفيه محاورة، لكننا قد لا ندرك كيفيتها، لكن نؤمن بها؛ لأن الله أخبرنا بها.

عرض الله هذه الأمانة على السموات، وما أبعدها، وما أجملها، وما أعظمها، وما أكبرها وعلى الأرض وما أوسعها وأفسحها، وما

أكثر تنوعها الأرض متنوعة، وما أجملها، والجبال ما أعلاها وأسمقها وأقواها وأصلبها وأشدها ردًا للبصر؛ وهو حسير!

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾؛ قال العلماء : وليس إباء استكبار، لم يأبين عن حمل الأمانة استكبارًا؛ بل أبين أن يحملن الأمانة خوفاً من ثقلها والتقصير في أدائها .

﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ ؛ جاء في كتب التفسير أن الله ﷻ لما عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال قلن يا رب، فما لنا فيها ؟ قال : إن أطعتن أثبتن، وإن عصيتن عقوبتن، فأبين أن يحملنها، وحملها الإنسان، حملتها أنت أيها الإنسان، وحملتها أنا.

﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾؛ حمل هذه الأمانة التي أشفقت السموات والأرض، والجبال تَعْظِيمًا لِدِينِ الله أَلَّا يَقُومُوا بِهَا، وحملها الإنسان، وما حال هذا الإنسان؟ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾؛ ولهذا ذكر ابن القيم ؒ فصلا في كتاب «إغاثة اللهفان» سنشير إليه -إن شاء الله تعالى- أن الأصل في النفس أنها ظالمة جاهلة.

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ؛ ثم انقسم الناس في حمل هذه الأمانة إلى ثلاثة أقسام . وسنذكر الأقسام على ترتيب ذكر

أصحابها في القرآن. انقسم الناس بالنظر إلى هذه الأمانة إلى ثلاثة أقسام:

* **القسم الأول:** قسم قبلوا الأمانة ظاهرًا، وردوها باطنًا. هم المنافقون ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣]. فالمنافقون قبلوا الأمانة ظاهرًا، فدخلوا في الإسلام في الظاهر، وردوا الأمانة باطنا؛ لأن المنافق أظهر الإسلام، وأبطن الكفر.

* **القسم الثاني:** وقسم ردوا الأمانة ظاهرًا، وباطنًا، وهم الكفار ردوا هذه الأمانة ولم يقبلوها.

* **القسم الثالث:** قسم قبلوا الأمانة ظاهرًا، وباطنًا مع التقصير. ولله الحمد وذلك أنه لما ذكرالمؤمنين والمؤمنات وهم الذين حملوا الأمانة ظاهرًا، وباطنًا قال: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣].

فلك الحمد يا رب...؛ وإلا لهلكنا أسى وحزنًا على تقصيرنا في جنب الله. ولهلكنا أيضًا من حيث الحساب من ربِّنا ربِّ الأرباب ﷻ: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ فحصل حملٌ للأمانة ظاهرًا وباطنًا؛ مع التقصير الذي يتوب الله ﷻ على العبد منه إذا هو تاب وأناب.

إذًا الإنسان الذي حمل الأمانة، والنفس التي حملت الأمانة الأصل فيها أنها ظالمة وجاهلة؛ فيزول الظلم بالتزكية، ويزول الجهل بالعلم.

ولهذا قال بعض أهل العلم : الأحسن في التعبير عن المنهج السلفي في الإصلاح أن يقال التصفية والتزكية. الأحسن ألا نقول التصفية والتربية، بل نقول التصفية والتزكية، أخذًا بالمصطلح القرآني؛ لأن من قواعد العلم أن نعتمد المصطلحات التي وردت في الكتاب والسنة، وجاءت عن سلف الأمة.

ربنا ﷻ يقول : وهذا بيان لارتباط الإصلاح بموضوعنا؛ تزكية النفس : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ ؛ [الرعد : ١١].

إذا ضج المسلمون وتوجعوا وتألموا وتململوا من حالهم المتمثل في الذل والهوان والضعف الذي أصابهم؛ فلا سبيل لهم إلى أن يغيروا هذا الحال إلا بتغيير ما بالأنفس : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [الرعد: ١١] ؛ وذلك بالعودة الصادقة إلى هذا الدين.

فصل

أشرت إلى أن البحث المختصر الذي سنقرأه هو كتابة بحثية وجدتها على شبكة الانترنت وهي مفيدة وجيدة.

وهذا الموضوع؛ موضوع تزكية النفس –لما سيأتي– من وجوه أهميته جدير بالدراسة المستقصية والمتوسعة؛ وهناك إسهامات لابأس بها في هذا الباب، لكن الأمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة.

ربنا ﷻ يقول : ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ويقول : ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾.

اجعل العلم النافع، والعمل الصالح؛ اجعل التعلم والتعليم والتزكية للنفس مشروع حياتك. واعلم كما سيأتي في كلام ابن القيم ؛ أن الموفق ينجح في أكثر أحواله، ويعثر، ويفشل في كثير من أحواله.

اعلم أنك لست معصوماً، والموفق من غلب عليه الخير؛ بمعنى أنك أيها الموفق لن تسلم من ذنب ومعصية، وأمر الذنوب خطير، إذ من يؤمنك أن تتوب، وأن يقبل الله توبتك، أعندك موثق من الله إذا أذنبت أن تتوب عساك أن تموت قبل التوبة، أعندك موثق من الله أن تقبل توبتك عساك أن تخل بشيء من شروط التوبة، وإني حينما أمر على حديث الشفاعة الذي يتوجه فيه أهل الموقف إلى سادات الأنبياء

والرسل؛ ليشفعوا لهم عند ربهم، وأكثرهم، أكثر الرسل يعتذرون عن الشفاعة بسبب ذنوب ارتكبوها، حينما أمر على ما ذكره الله ﷻ من أن آدم عليه السلام أهبط من الجنة؛ ليشقى في الأرض بسبب ذنب، بسبب أنه أكل من الشجرة.

لكن مع ذلك أنت لست معصومًا، ولا أريد أن أتوسع في ذكر الأدلة على وقوع الذنب من العبد، وعلى رحمة الله للعبد بقبول توبته؛ لكن سأذكر حديثًا واحدًا وهو ما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» وحسنه لغيره العلامة الألباني؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**وَعِزَّتِكَ، لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ**» إبليس يقسم بعزة الله «**وَعِزَّتِكَ، لَا أَبْرَحُ**» أي سأستمر «**أُغْوِي عِبَادَكَ**» أزين لهم الشر، وأدعوهم إلى الحرام بمختلف أنواعه.

«**وَعِزَّتِكَ، لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ**»؛ نحن ذكرنا الروح والجسد؛ لأن الموت يحصل بمفارقة الروح للجسد.

«**قَالَ الرَّبُّ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي**».

بعد هذا -إن شاء الله- نشرع في قراءة هذا البحث في تزكية النفوس سائلين الله ﷻ التوفيق لكل خير.

فصل : في أهمية تزكية النفوس

مما يوضح أهمية هذا الموضوع ؛ أن الله ﷻ أقسم أقسامًا كثيرةً ومتواليةً على أنَّ صلاحَ العبدِ وفلاحه منوطٌ بتزكية نفسه؛ فقال ﷻ :

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا ﴿٨﴾ وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ – ١٠].

قال أبو محمد –عفا الله عنه– : ذكر أن العناية بتزكية النفوس تعظم، وتلح في هذا العصر بسبب أن الحياة المعاصرة حياة معقدة، كثرت فيها المشاغل، وتعددت فيها المتطلبات، وتنوعت فيها الفتن التي تعصف بالقلوب، والنفوس.

ونحن نعايش واقعًا خطيرًا؛ وإذا كنا نذكر الحديث الذي فيه أن النبي ﷺ خاطب أصحابه فقال : «**إِنَّ مِنْ وَرَاءِكُمْ أَيَّام الصَّبْرِ لِلْمُتَمَسِّكُ فِيْهِنَّ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرُ خَمْسِيْنَ مِنْكُمْ**»[1].

النبي ﷺ يخبر أنه بعد الصحابة ستكون أيام لكثرة فتنها سميت بأيام الصبر، وأن الذي يتمسك بما كان عليه الصحابة له أجر خمسين منهم؛ من الصحابة.

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١) والترمذي (٣٠٥٨).

وهذا إشارة -والله أعلم- إلى كثرة الفتن، وإلى شدتها، وإلى تنوع الصوارف عن الحق، وإلى قلة المعين. ولهذا الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- ألف بين قلوب المؤمنين، وأمر بأن تأتلف قلوب المؤمنين، وأن تكون الولاية هي الرابطة بين المؤمنين ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾؛ [التوبة: ٧١].

فكم نحتاج إلى أن يدعو كل واحد منا لأخيه بظهر الغيب بالثبات على الحق، وبالاستقامة على الصدق، وبالسلامة والنجاة من الفتن. ولهذا جاء في بعض الأحاديث المتكلم في ثبوتها: «**لِأَنَّكُمْ تَجِدُوْنَ عَلَى الخَيْرِ أَعْوَانًا، وَلَا يَجِدُوْنَ عَلَى الخَيْرِ أَعْوَانًا**».(١)

وهذا الحديث وإن ضُعِّف؛ إلا أن مصداقه هو الواقع. فإن المعين قليل في هذا العصر؛ ولهذا تعظم الغربة. كما قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ۝١١٦﴾ [هود: ١١٦]. قليلا ممن أنجينا منهم؛ أسأل الله ﷻ أن نكون من هؤلاء القليل!.

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١) والترمذي (٣٠٥٨). ضعفه الألباني

فإذًا الحياة معقدة، والفتن المعاصرة عاصفة، وهذه الحياة المتسارعة تحملنا على أن نغفل، وأن ننسى، وأن يغيب عنا أمر تزكية النفوس، والعاقبة إذا غفلنا، وأهملنا جانب التزكية أن تقسو القلوب، وأن نتثاقل عن الطاعات، وأن نركن إلى متاع الدنيا، وزخرفها، ولهذا كثر التحذير من الاغترار بالدنيا .

الاغترار بالدنيا خطير؛ لأن الدنيا غرارة، خداعة، كم أهلكت أناسًا. هي الدنيا تقول بملْ فيها؛ الدنيا تنادي بالتحذير من فتكها، وبطشها.

هِيَ الدُّنْيَا تَقُوْلُ بِمِلْءِ فِيْهَا   حَذارِ حَذَارِ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي
فَلَا يَغْرُرْكُمْ مِنِّي ابْتِسَام   فَقولِي مُضْحِكٌ وَالْفِعْل مُبْكِي

ولهذا جاء في بعض الآثار عن عيسى ﷺ أنه قال: «من ذا الذي يبني على موج البحر دارًا، هي الدنيا فلا تتخذوها قرارًا».

في هذه الآية ؛ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ إلى ما بعدها ؛ أقسم الله أحد عشر قسمًا متوالية؛ لكن ما هو جواب القسم؟ قال : ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩ - ١٠].

ذكر الحافظ عماد الدين بن كثير ﷺ أن في قوله ﷻ : ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن

﴿زَكَّىٰهَا﴾ ؛ احتمالين :

الإحتمال الأول : قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وطهرها من الأعمال والاخلاق الدنيئة والرذائل.

والإحتمال الثاني : قد أفلح من زكى الله نفسه.

والوجه الأول هو الذي رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقال عنه : «وهذا وجه الكلام الذي لا ريب في صحته».

«قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا»؛ أي قد فاز بالمطلوب وهو الجنة، ونجا من المرهوب وهو النار، من زكى نفسه بطاعة الله، وهذا الوجه هو الصحيح، والمتعين.

- ❑ **الوجه الأول** : فيكون الفاعل في قوله : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ ؛ راجع إلى الإنسان، والضمير ﴿زَكَّىٰهَا﴾ أي النفس.
- ❑ **الوجه الثاني** : قد أفلح من زكى الله نفسه، فيكون الضمير راجع إلى الله عز وجل.

وابن تيمية رحمه الله رجح الوجه الأول، ورد الوجه الثاني. وذكر أن الوجه الثاني يستلزم أن يخلو الاسم الموصول : ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ من عائد.

إذًا؛ الصواب في معنى الآية قد أفلح من زكَّى نفسه. والقول الثاني مع كونه مردودًا إلا أنه يلتقي مع -ما سيأتي- أن من أعظم أسباب تزكية النفس الدعاء؛ لأن الذي يزكي النفس بإصلاحها وهدايتها هو الله ﷻ.

وعليه فمن أسباب تزكية النفس؛ أن نسأل ربنا ﷻ أن يزكي نفوسنا كما -سيأتي في هذا البحث- ؛ كان من دعاء النبي ﷺ : «**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا**».(١)

والعلماء قالوا : «**أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا**» ؛ خير هنا ليست على اسم أفعل التفضيل، بل هي هنا؛ لبيان أن الذي يزكي النفس هو الله وحده.

قال ﷻ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾؛ ما هو معنى دسَّاها ؟؛ سيذكر المصنف معنى «دسَّاها»، لكن لا بأس أن نعلق هنا. فقوله : ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾؛ أي أخفى نفسه الكريمة. سبحان الله..! هذا الفعل مستعمل عندنا بمعناه عند العرب؛ فلان «ادَّسَى»، أي أخفى نفسه الكريمة بالمعصية، وأخملها؛ جعلها خاملة لا قيمة لها، ووضع منها وجعلها وضيعة؛ والله المستعان.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢).

إذًا؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيّن أهمية تزكية النفس في هذه الآيات؛ إذ أقسم على فلاح من زكى نفسه بأحد عشر قسمًا.

❊ ❊ ❊

فصل

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى : ١٤-١٥]. **وكَانَ الأَنْبِيَاءُ** عَلَيْهِمُ السَّلَامُ **يَدْعُوْنَ إِلَى تَزْكِيَةِ النُّفُوْسِ، فَهَذَا مُوْسَى** عَلَيْهِ السَّلَامُ **يَقُوْلُ لِفِرْعَوْنَ** : ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾ ؛ [النازعات : ١٨- ١٩]. **وقال** عَزَّ وَجَلَّ **عن نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ** ﷺ : ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة : ٢].

قال أبو محمد –عفا الله عنه– : أيضًا من وجوه أهمية موضوع تزكية النفس قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] ؛ «قد» حرف تحقيق؛ وهو أحد المؤكدات، يؤكد الله عَزَّ وَجَلَّ فلاح من تزكى.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾؛ في تفسير ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ :«أي طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وتابع ما أنزل الله على رسوله ﷺ».

بعض الناس يزعم أن التصوف يمثل تزكية النفس؛ وهذا باطل، وقول عاطل، وادعاء فاشل لا وزن له. فالتصوف نبتة خبيثة، وثمرة مهلكة؛ وإن كان من العلماء من قبِل نوعًا من التصوف يكون سالمًا من انحراف العقيدة والسلوك؛ لكن نحن لا نجعل كلام علمائنا حجة ملزمة، بل نخضع كلام العلماء للوزن والاعتبار.

وما كُلّ قَولٍ بالقبُول مُقَابــــل وما كُلّ قَول واجِب الرَّد والطَّرد
سِوى ما أتى عَنْ ربنا ورَسُوله فَذلك قَول، جلَّ، يا ذا، عن الرَّد
وأمَّا أقاويـــــل الرِّجال فإنَّهـــا تَــدورُ علَى قدْرِ الأدلةِ في النَّــقْد

هذا من جميل شعر العلامة محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني ﷺ؛ وهو يمثل منهج السلف الحق في هذا الباب. فليس كل قول يقبل مطلقًا ؛ الذي يقبل وجوبًا قول الله ورسوله؛ لأنه حق. فنقول إذا أخطأ العالم : فلان نرجو أن يكون مأجورًا أجرًا واحدًا؛ لأن كلامه مردود.

والحق أن التصوف كمصطلح وحقيقة مردود. والقول بأن التصوف يمثل تزكية النفس باطل؛ لأن تزكية النفس هي الدين، وهي من وظيفة النبي ﷺ، وتكون بالعلم النافع، والعمل الصالح، أما التصوف فعلمٌ غير محقق وعملٌ محدث. وسيأتي في كلام ابن القيم ﷺ الإشارة إلى أن إصلاح النفس قد يكون بوسائل ليس عليها دليل، بل هي من قبيل البدع، والمحدثات.

فإذًا؛ تزكية النفس -كما سيأتي- في مفهومها هي : إصلاح النفوس بالعلم النافع، والعمل الصالح، بتقوى الله ﷻ؛ وليس بالبدع والمحدثات والتجويع والسهر والتخلي إلى غير ذلك من هذه الضلالات التي عُرف بها المتصوفة.

جاء في كتاب «إحياء علوم الدين» قوله : «فَاعْلَم أنَّ الغِناء أَشَدُّ تَهْيِيجًا لِلوَجْدِ مِنَ القرآن مِنْ سَبْعَةِ أَوْجُهٍ». الصوفي يقصد بالغناء، الغناء الصوفي؛ والوجد أمر محمود عندهم. وتأمل قبح هذا الإطلاق!.

ثم ذكر القصة التي كنت أريد أن أسوقها لكم : وقد حُكى عن أبي الحسن الدراج أنه قال : قصدت يوسف بن الحسين الرازي من بغداد للزيارة والسلام عليه ؛ فلما دخلت الري كنت أسأل عنه، فكل من سألته عنه قال : أيش تعمل بذلك الزنديق ؟؛ فضيقوا صدري حتى دخلت عليه في مسجد وهو قاعد في المحراب وبين يديه رجل وبيده مصحف وهو يقرأ القرآن. فإذا هو شيخ بهي حسن الوجه واللحية ؛ فسلمت عليه فأقبل علي وقال : من أين أقبلت ؟

فقلت : من بغداد.

فقال : وما الذي جاء بك ؟

فقلت : قصدتك للسلام عليك.

فقال : لو أن في بعض هذه البلدان قال لك : إنسان أقم عندنا حتى نشتري لك داراً أو جارية أكان يقعدك ذلك عن المجيء ؟

فقلت : ما امتحنني الله بشيء من ذلك ولو امتحنني ما كنت أدري كيف أكون.

ثم قال لي : أتحسن أن تقول شيئاً ؟

فقلت : نعم.

فقال : هات.

فأنشأت أقول :

رأيتــك تبني دائماً في قــطيعتي   ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني

كأني بكم والليت أفضل قولكم   ألا ليتنــا كنا إذ الليت لا يغــــني

قال : فأطبق المصحف، ولم يزل يبكي حتى ابتلت لحيته وابتل ثوبه حتى رحمتُه من كثرة بكائه.

ثم قال : يا بني !؛ تلوم أهل الري يقولون : يوسف زنديق؛ أتلومهم على قولهم إني زنديق؟. هذا أنا من صلاة الغداة أقرأ في المصحف لم تقطر من عيني قطرة؛ وقد قامت القيامة عليَّ لهذين البيتين. ا هـ

* * *

قال أبو محمد -عفا الله عنه- : ربنا ﷻ يقول : ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة : ٨٣].

هذا الصوفي منذ الصباح لم تنزل دمعة من عينه وهو يقرأ كلام الله ﷻ. فهذا دين الصوفية، وهذا مسلكهم، ووسائلهم في إصلاح النفوس. والله المستعان !

قال ابن القيم ﷺ في «إغاثة اللهفان» (١/ ١٢٥) : «وقد اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم، وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يُدخل عليه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ولا يُوصل إليه إلا بعد تركها وإماتتها بمخالفتها والظفر بها». اهـ

يعني هل تريد الوصول إلى الله، وأن تتنعم بذكره، وطاعته، لا سبيل لك إلى ذلك إلا بأن تميت هذه النفس، وذلك بتزكيتها؛ لأنه قال: «بإماتتها بمخالفتها والظفر بها»؛ أن تنتصر على نفسك، أن تزكي نفسك، هذا الذي تدخل به على الله ﷻ، وتصل به إليه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وتتنعم بذكره وطاعته جل في علاه.

وكَانَ الأَنْبِيَاءُ عليهم السلام يَدْعُوْنَ إِلَى تَزْكِيَةِ النُّفُوْسِ، فَهَذَا مُوْسَى عليه السلام يَقُوْلُ لِفِرْعَوْنَ : ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ .

قال أبو محمد : سيأتي معنا؛ أن أعظم سبب لتزكية النفس توحيد الله عز وجل. والآية شاهد على ذلك. كيف يتزكى؟ بالإسلام، والطاعة .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ فَقُل هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ ؛ «تشهد أن لا إله إلا الله». هذا التوحيد. وقال البغوي رحمه الله : «تَتَزَكَّى، وَتَتَطَهَّرَ من الشِّرْكِ». اهـ

وقال عز وجل عن نبينا محمَّد صلى الله عليه وسلم : ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة : ٢].

قال أبو محمد -عفا الله عنه- : هذه الآية ، وآيات آخر تدل على أن من وظائف النبي صلى الله عليه وسلم، ومن جلائل أعماله التي بُعث بها تزكية النفوس. إذًا، من أين تستمد تزكية النفوس؟ من القرآن، والسنة.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ؛ قال ابن القيم ﵀ في «مدارج السالكين» (٢/ ٣٠٠) :

«إنَّ تزكية النفوس مُسلَّم إلى الرسل؛ وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها ؛ وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليمًا وبيانًا، وإرشادًا، لا خلقًا ولا إلهامًا. فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال الله تعـالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة : ٢]. وقال : ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة : ١٥١- ١٥٢]. وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكَّى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجيء بها الرسل». ا هـ

هذا صنيع الصوفية؛ يأتون بوسائل لتزكية النفوس من بنات أفكارهم؛ كالرياضة، والتخلي، والسهر، والجوع، والسماع المحدث ؛ -كما مرّ فيمن لُقِّب بيوسف الزنديق-، يتلى عليه القرآن من صلاة الفجر لم تنزل من عينه قطرة واحدة من الدمع؛! ولما أنشده بيتين قامت عليه القيامة !.

ثم قال ﷺ : «فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجئ بها الرسل فهو كالمريض الذي عالج نفسه برأيه»؛ يعالج نفسه برأيه ويترك الذهاب إلى الطبيب.

يُقال له : يا فلان ! أنت مريض؛ اذهب إلى الطبيب! فيُجيب : لا، أنا طبيب نفسي. قالوا : أنت أين درست الطب؟ فيجيب : لا، أنا أعرف الذي ينفع نفسي، وبعد يومين أين فلان ؟ قالوا : مات.

ثم قال ابن القيم : «وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب ؟ فالرسل أطباء القلوب»؛ بمعنى الدعوة والبيان، وليس التوفيق والإلهام. قال : «فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم. والله المستعان». اهـ

* * *

فصل

تزكية النفس سبب الفوز بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، كما قال ﷻ: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٥- ٧٦]. **أي طهَّر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له واتبع المرسلين فيما جاءوا به من خبر وطلب.**

قال أبو محمد -عفا الله عنه- : أيضًا من وجوه أهمية تزكية النفس أن تزكية النفس سبب للفوز بالجنة؛ والجنة تنال بتوفيق الله ﷻ، وبتزكية النفوس.

فتزكية النفوس سبب الفوز بالدرجات العلا، والنعيم المقيم في الجنة كما قال ﷻ في «سورة طه» في سياق الإخبار عمن كانوا يُعرفون بسحرة فرعون، ثم هداهم الله ﷻ إلى الإيمان: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝٧٣ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ

عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه : ٧٢ - ٧٦].

وفي «تفسير البغوي» ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾؛ قال : «أي تطهر من الذنوب». وقال الكلبي في تفسير قوله ﷻ : ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾؛ : «أعطى زكاة نفسه، وقال لا إله إلا الله». اهـ

* * *

وكان من دعائه ﷺ : «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا».

قال أبو محمد : هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه. وسيأتي -إن شاء الله- أن من وسائل تزكية النفس الدعاء وسؤال الله ﷻ أن يزكي النفس.

والدليل هذا الحديث، كان من دعاء النبي ﷺ : «**اللَّهُمَّ آتِ**» أي اعطي «**نَفْسِي تَقْوَاهَا**»؛ فمن الذي يعطي النفس التقوى؟ الله ﷻ. وهذا بمعنى قوله : ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾.

فصل : معنى التزكية النفس

التزكية لغة : الطهارة والنماء والزيادة. والمراد بها ها هنا : إصلاح النفوس وتطهيرها، عن طريق العلم النافع. والعمل الصالح، وفعل المأمورات وترك المحظورات. وقد بين النبي ﷺ معنى تزكية النفس بقوله : «أن يعلم أن الله ﷻ معه حيث كان».

ونسوق الحديث بتمامه، حيث قال ﷺ : «ثَلاَثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ طَعْمَ الإِيمَانِ : مَنْ عَبَدَ الله وَحْدَهُ وأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلا الله وأعْطَى زَكاةَ مالِهِ طَيِّبَةً بِها نفسه رافدة عَلَيْهِ كُلَّ عامٍ وَلَا يُعْطِي الهَرِمَةَ وَلَا الدَّرِنَةَ وَلَا المَرِيضَةَ وَلَا الشَّرْطَ اللَّئِيمةَ ولكِنْ مِنْ أوْسَطِ أمْوالِكُمْ فإنَّ الله لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهُ وَلَمْ يأْمُرْكُمْ بِشَرِّهِ وَزَكَّى نَفْسَهُ فَقَالَ رَجُلٌ: وَمَا تَزْكِيَةُ النَّفْسِ؟ فَقَالَ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ».

فجعل النبي ﷺ تزكية النفس إحدى الخصال الموجبة لذوق طعم الإيمان. ففسر التزكية بإحدى مراتب الإحسان، وهو أعلى مقامات الدين وهو أن يعبد الله تعالى على أن الله يراه، ويطلع على سره، وعلانيته، ويعلم باطنه، وظاهره، ولا يخفى عليه شيء من أمره. اهـ

****

قال أبو محمد -عفا الله عنه- : بعد أن تبين لكم شيء مما يدل على أهمية موضوع تزكية النفس؛ ننتقل إلى بيان المراد بالتزكية.

«معنى التزكية؛ التزكية لغة : الطهارة والنماء والزيادة»؛ هذا معنى التزكية في اللغة. «زكا الزرع» إذا نما، وزاد، وفلان زكي؛ أي طاهر من القبائح، سالم من القبائح. وقال ابن تيمية ﵀ عن الفلاسفة: «أوتوا ذكاء، ولم يؤتوا زكاء».

قال : «والمراد بها ها هنا» المراد بتزكية النفس «إصلاح النفوس وتطهيرها، عن طريق العلم النافع والعمل الصالح، وفعل المأمورات وترك المحظورات» ؛ وسيزيد هذا التعريف بيانًا بالنقل عن عدد من العلماء.

قال العلامة السعدي ﵀ في تفسيره : «فإن للتزكية معنيين؛ التنقية، وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير». اهـ

ونؤكد على ما ذكر من معنى لتزكية النفس بأن نقول في تعريفها :

«تزكية النفس هي إصلاح النفس وتكميلها بالعلم النافع، والعمل الصالح بفعل المأمورات وترك المنهيات وتطهير النفس، وتخليصها من كل قبيح يُبعد عن الله».

حكم تزكية النفس

إذا عرفنا المراد بتزكية النفس؛ توصلنا لمعرفة حكمها. لأن بعضهم يذكر خلافًا بين العلماء في حكم تزكية النفس؛ فيزعم أن الأكثرين على أن تزكية النفس مستحبة، وأن بعضهم قال: بأنها فرض عين.

وإذا عرفنا المراد بتزكية النفس فإننا نقطع بكونها فرض عين على كل مسلم؛ لأنه قد ظهر من تعريفها أنها بمعنى تقوى الله ﷻ المعروف فرضها، وفضلها.

تنبيه: وثمت نوع آخر من أنواع التزكية ورد فيه قول الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم: ٣٢]. وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩﴾ [النساء: ٤٩].

قال القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾؛ «أي لا تمدحوها، ولا تثنوا عليها». وهذا النوع من التزكية الأصل فيه أنه محرم ومنكر.

إذًا؛ التزكية نوعان :

الأول : تزكية هي فرض عين، ومطلوبة، وممدوح أهلها، وهي تزكية النفس بمعنى إصلاحها وتكميلها بالعلم النافع، والعمل الصالح بفعل المأمورات، ترك المنهيات، وتطهير النفس، وتخليصها من كل قبيح يبعد عن الله.

الثاني : النوع الآخر من أنواع التزكية، وهو الذي جاء فيه قوله تعالى : ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم : ٣٢]. يعني لا تمدحوها، لا تثنوا عليها؛ هذا محرم، الأصل أنه محرم أن تمدح نفسك، وأن تثني عليها.

❊ ❊ ❊

فصل

قال الباحث -جزاه الله خيرًا-: «**وقد بيّن النبيﷺ معنى تزكية النفس بقوله: «أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ ﷻ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ**».

قال أبو محمد: هذا قد نتكلم عنه متصلًا بأحد أسباب تزكية النفس وهو ترك المحرمات، وترك الذنوب والمعاصي؛ فمما يعينك على ترك الذنوب والمعاصي وعلى المسارعة إلى الخيرات والأعمال الصالحات أن تعلم أن الله معك حيث كنت. ولهذا عرّف النبي ﷺ تزكية النفس بذلك.

وهذا المقصد؛ -أسأل الله ﷻ أن يكرمنا به- علينا أن نسعى لغرسه، وتحصيله في النفوس وهو استشعار العبد أن الله معه بعلمه؛ أن يُوفق العبد إلى مراقبة الله.

وهذا فضلٌ كبير من الله؛ لماذا نقع في الذنوب كثيرًا ؟ لا سيما ذنوب الخلوات؛ لضعف استشعارنا بأن الله معنا.

ولهذا السلف أجمعوا على أنه لم يعصِ أحد الله ﷻ إلا عن جهل ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾؛ [النساء: ١٧].

قال قتادة ﷺ : «أجمع السلف على أن كل من عصى الله فهو جاهل»؛ جاهل بماذا ؟ لا يستحضر أن الله معه.

لا أحد يسلم من الذنب بعد الأنبياء، فربما حتى الصالح منا يخلو بنفسه فيتمكن من ذنب، يتيسر له فعل ذنب فيضعف ويواقع الذنب، وربما أثناء مواقعته للذنب. لماذا هو واقع الذنب؟؛ لجهله بعظمة الله حين معصيته، ولضعف استشعاره أن الله يراه؛ ربما وهو يواقع الذنب يأتيه هاتف نفسي : -الله يراك يا فلان-، لكن؛ لاستيلاء الرغبة في الذنب على قلبه يضعف تأثير هذه المعرفة الخاطفة. لذلك النبي ﷺ يقول : «**أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ ﷻ مَعَهُ**».

قال : «**ونسوق الحديث بتمامه، حيث قال ﷺ**»؛ وهذا الحديث أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» والبيهقي في «السنن»، وصححه الألباني في «الصحيحة» وهو من حديث عبد الله بن معاوية الغاضري، وأصله في «سنن أبي داود»؛ لكن لم ترد فيه هذه الزيادة التي هي موضع الشاهد.

حيث قال ﷺ : «**ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طَعْمَ الإِيْمَانِ**»؛ تريد أن تذوق طعم الإيمان، أن تشعر بطعم الإيمان؟ فعليك بهن.

«مَنْ عَبَدَ الله وَحْدَهُ وأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلا الله وأَعْطَى زَكاةَ مالِهِ طَيِّبَةً بِها نفسه رافدة عَلَيْهِ كُلَّ عامٍ وَلَا يُعْطِي الهَرِمَةَ وَلَا الدَّرِنَةَ وَلَا المَرِيضَةَ».

الهَرِمَةُ : هي المسنة ؛ الكبيرة السن من كل حيوان.

والدَّرِنَةُ : هي المعيبة الرديئة؛ كالجرباء، ونحوها.

والمَرِيْضَةُ : أي البين مرضها.

قال الباحث : «**فجعل النبي ﷺ تزكية النفس إحدى الخصال الموجبة لذوق طعم الإيمان، وفسر التزكية بإحدى مراتب الإحسان، وهو أعظم مقامات الدين**».

قال أبو محمد : في الحديث : «**الْإِحْسَانُ أَن تعبد الله كَأَنَّك تَرَاهُ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

«**أن تعبد الله كأنك تراه**»؛ هذا مقام مشاهدة الصفات.

«**فإن لم تكن تره فإنه يراك**» ؛ هذه المراقبة أن تعلم أن الله معك بعلمه.

* * *

فصل : في بيان العلماء لمفهوم التزكية

قال الباحث : **وإليك بعض كلام أهل العلم في بيان معنى التزكية.**

يقول القرطبي ﷺ : «إن الزكاة مأخوذة من زكا الشيء إذا نما وزاد يقال : زكا الزرع، والمال يزكو إذا كثر وزاد». اهـ

وقيل : أصله الثناء الجميل، ومنه زكَّى القاضي الشاهد؛ فكأن من يخرج الزكاة يحصل لنفسه الثناء الجميل.

وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير كما يقال : زكا فلان أي طهر من دنس الجرحة والإغفال.

قال أبو محمد –عفا الله عنه– : ذكر الباحث أقوالًا لبعض العلماء في بيان معنى التزكية، ومن ذلك ما نقله عن القرطبي ﷺ؛ ولكن ما ذكر عن القرطبي لا يزيد على بيان معنى التزكية في لغة العرب.

والمتحصل من كلامه ﷺ أن الزكاة؛ إما أن تكون مأخوذة من زكا الشيء؛ إذا نما وزاد، أو من الثناء الجميل، ومنه تزكية الشاهد. ومعلوم أن من تقدم بشهادة عند قاضٍ فإن شهادته لا تقبل إلا إذا كان عدلًا، فإذا كان هذا الشاهد غير معروف عند القاضي فإنه يحتاج

إلى أي يُزكى هذا الشاهد من المزكين، والمعدّلين؛ وتزكيتهم له هي شهادتهم له بالخير، وبالصدق، وبحسن الديانة، وهذا كله داخل في الثناء الجميل.

وقيل : إن الزكاة مأخوذة من التطهير، والتنزه، والتخلص من القبائح، وما يعاب به الإنسان.

والأقرب : أن زكا هذا الفعل يدل على كل هذه المعاني، وأن جميع هذه المعاني مرادة عند من يتكلم عن مفهوم التزكية، فتزكية النفس هي تنميتها وزيادة الخير الذي يحبه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيها. وهي أيضًا تطهيرها من كل ما يكرهه الله ﷻ ويأباه، ومتى وفق الإنسان إلى تزكية نفسه بهذا المعنى؛ بأن أخذ بالعلم النافع، والعمل الصالح فإنه يكون مثنىً عليه محمودًا، ممدوحًا عند ربه جل في علاه.

* * *

يقول ابن تيمية ﵀ : والزكاة في اللغة؛ النماء والزيادة في الصلاح يقال : زكا الشيء إذا نما في الصلاح. فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا باعطاء ما ينفعه

ومنع ما يضره ؛ وكذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره.

قال أبو محمد -عفا الله عنه- : خلاصة كلام أبي العباس ابن تيمية ﵀ أن تزكية النفس وتزكية القلب إنما تحصل بأمرين :

الأمر الأول : بالأعمال الصالحة التي يقوى بها الإيمان، والتي تزكو بها النفس.

الأمر الثاني : بدفع ما يضعف الإيمان في القلب، وما يمنع من حصول التزكية المطلوبة شرعًا.

وهذا الذي يعبر عنه بعض العلماء بالتخلية، والتحلية. **التخلية** : دفع، وإبعاد، وامتناع عن كل ما يقسي القلب، وما يضعف الإيمان من المعاصي، والسيئات. **والتحلية** : هي إصلاح النفس وتزكيتها بالأعمال الصالحة.

قال ابن تيمية ﵀ في رسالة «فصل في تزكية النفس» (ص ١٨) :

«وأصل الزكاة الزيادة في الخير. ومنه يقال : -زكا الزرع وزكا المال- إذا نما ولن ينمو الخير إلا بترك الشر؛ كالزرع الذي لا يزكو حتى يزال عنه الدغل، فكذلك النفس والأعمال لا تزكو حتى يزال عنها ما

يناقضها، ولا يكون الرجل متزكيا قد زُكّي إلا مع ترك الشر؛ ومن لم يترك الشر لا يكون زاكياً البتة؛ فإن الشر يدنّس النفس ويدسيها». اهـ

الكلام كله يدور على معنى واحد لا بد من أن يرسخ في النفس والقلب، والعقل؛ أن التزكية التي هي من مقاصد بعثة الرسل، وهي السبب لنيل الفلاح، وللفوز بالجنة هذه التزكية لا تحصل إلا :

١) بالزيادة في الخير

٢) وبدفع الشر عنها.

إلا :

١) بالأعمال الصالحة

٢) بمجاهدة النفس لتسلم وتبعد عن الذنوب والمعاصي.

وقد مر معنا قول الله ﷻ : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا ۝٧ فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

* * *

ويقول ابن القيم ﷺ : «الزكاة فى اللغة : هى النماء والزيادة فى الصلاح، وكمال الشىء، يقال : زكا الشىء إذا نما، قال الله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة : ١٠]؛ فجمع بين الأمرين : الطهارة والزكاة، لتلازمهما. فإن نجاسة الفواحش والمعاصى فى القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة فى البدن، وبمنزلة الدغل في الزرع، وبمنزلة الخبث فى الذهب والفضة والنحاس والحديد، فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت، فعملت عملها بلا معوق ولا ممانع، فنما البدن، فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت إرادة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة : زكا ونما، وقوى واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفذ حكمه فى رعيته، فسمعت له وأطاعت. فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته». اهـ

قال أبو محمد : الإمام ابن القيم ﷺ يبين معنى التزكية بضرب مثل رائع؛ المريض الذي أصيب بمرض فأنه حتى تعود إليه عافيته، وحتى ترجع إليه صحته يحتاج إلى أمرين :

أولا : يحتاج إلى أن يتخلص هذا البدن من الأخلاط الرديئة، أن يتخلص البدن من هذه المكروبات من بكتيريا أو فيروسات. وهذه الميكروبات هي التي تمثل العدو الغازي الذي يعمل على مهاجمة البدن، وعلى إضعافه.

ثانيا : ويحتاج أيضًا إلى أن يقوى البدن بالأغذية التي تعين على دفع هذه الأخلاط الرديئة.

قال ﵀ : «فإن نجاسة الفواحش والمعاصى فى القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة فى البدن، وبمنزلة الدغل فى الزرع، وبمنزلة الخبث فى الذهب والفضة والنحاس والحديد. فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت، فعملت عملها بلا معوق ولا ممانع، فنما البدن، فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت إرادة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة : زكا ونما..».

إذًا كما قال الشاعر :

فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَوْحَشَتْكَ الذُّنُوبُ فَدَعْهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسِ

الذنوب لها عقوبات كثيرة، من جملة هذه العقوبات الوحشة التي يجدها المذنب؛ هذه الوحشة لا تزول إلا بتوبة نصوح، وإلا بأعمال صالحات. فــإن الله ﷻ يقول : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود : ١١٤].

فإذًا ؛ من مقومات وأجزاء معنى التزكية في الشريعة البعد عن الذنوب والمعاصي، ولكننا لسنا معصومين، نحن معرضون للوقوع في الذنوب فلا بد من أن نتوب من هذه الذنوب. لا بد أن نحذر الذنوب والمعاصي؛ لأنها تمرض القلب، وتضعف النفس، ولا يكون معها تزكية على الوجه الذي يحبه الله.

* * *

فصل : وسائل تزكية النفس

نذكر ابتداء أن تزكية النفوس عن طريق الشرع، فلا سبيل إلى تزكية النفوس إلا من طريق الرسل عليهم السلام.

قال أبو محمد -عفا الله عنه-: نحن كنا قد أملينا عليكم نقلًا عن ابن القيم رحمه الله في أن تزكية النفوس مسلمة للرسل؛ قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾ [آل عمران : ١٦٤]. وقال عز وجل : ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.
[النازعات : ١٧ - ١٩].

وهذا أحد الفروقات العظيمة بين من منهج الإسلام الذي عليه السلف الكرام في تزكية النفس، وبين المناهج المحدثة؛ ومنها مناهج الصوفية؛ فالصوفية يزعمون أن صلاح النفوس واستقامتها إنما تحصل برياضة النفس بالطرق المبتدعة وبسماع الأناشيد الصوفية؛ وما يسمى بالسماع الصوفي. وأيضًا تكون بالذكر بالاسم المفرد بأعداد كبيرة؛ أن تقول : الله، الله.. مائة ألف مرة مثلًا ، ونحو ذلك.

ألم يمر عليكم هذا في «إحياء علوم الدين»، بعض الصوفية يقول : لا إله إلا الله : ذكر العامة ؛ الله ، الله ، الله : ذكر الخاصة؛ هو..، هو، هو .. : ذكر خاصة الخاصة.

والنبي ﷺ يقول : «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِله إِلَّا الله**».[1] ويقول : «**أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّوْنَ مِنْ قَبْلِي لَا إِله إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ**».[2]

فجعلوا ما فضَّله النبي ﷺ مفضولاً، وفضَّلوا ما هو محدث ومبتدع ولم يُعرف لا عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه ﷺ. كذلك يجعلون من أسباب التزكية التخلي ؛ أن تنفرد عن الناس وتختلي عنهم في غار أوفي حجرة مظلمة.

ومن أسباب التزكية عندهم السياحة بمعنى أن تخرج إلى الفلوات والصحارى من غير زاد، ومن غير وجهة تقصدها؛ ويزعمون أنه يحصل بهذا حقيقة التوكل؛ وأن تجعل الوحوش أنيسك.

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٦٦٧)

(٢) أخرجه مالك في ((الموطأ)) (١/ ٢١٤)، والبيهقي (٨٦٥١)

والحق أن هذا كله من المحدثات التي لم يأت بها من الشرع حجة ولا برهان بل هي مبعدة عن الرحمن.

قال الباحث : «**نذكر ابتداء أن تزكية النفوس عن طريق الشرع ، فلا سبيل إلى تزكية النفوس إلا من طريق الرسل عليهم السلام**».

قال أبو العباس ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٦٢) وما بعدها باختصار : «فالعلم المشروع والنسك المشروع مأخوذ عن أصحاب رسول الله ﷺ، ... فمن بنى الكلام في العلم : الأصول والفروع على الكتاب والسنة والآثار المأثورة عن السابقين فقد أصاب طريق النبوة؛ وكذلك من بنى الإرادة والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية والأعمال البدنية على الإيمان والسنة والهدي الذي كان عليه محمد ﷺ وأصحابه فقد أصاب طريق النبوة وهذه طريق أئمة الهدى». اهـ

إذًا من أراد الحق، وأراد أن يوفق لطريق النبوة فعليه أن يبني العلم والعمل على الكتاب والسنة، والآثار المأثورة عن السابقين من المهاجرين والأنصار ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

يقول ابن القيم رحمه الله : «**وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد. فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجئ بها**

الرسل؛ فهو كالمريض الذي عالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب ؟ فالرسل أطباء القلوب؛ فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم. والله المستعان». اهـ

قال أبو محمد : وهذا النقل قد تقدم وقد أشار فيه ابن القيم رحمه الله إلى أن تزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان؛ لأن العلاج وإن كان لا يحصل المقصود منه وهو الشفاء إلا بإذن الله سبحانه وتعالى إلا أن الله عز وجل برحمته جعل الأجساد والأبدان منفعلة بما يلائمها إلا إذا حصل فساد مزاج فإنها ربما تضررت بما ينفعها ؛ وهذا أصعب وأشد بالنسبة لعلاج القلوب والأرواح والنفوس.

قال رحمه الله : «فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجئ بها الرسل»؛ وما لم يجيء به الرسل مما يجعل طريقًا للقرب من الله عز وجل ما حكمه؟ ؛ محدث، ومبتدع، ومردود، والذي يستعمل هذه الوسائل مريدًا إصلاح نفسه، والقرب من ربه هو ساعٍ في ضد ما يريد، وفي عكس ما يريد، وهذا مفسد للقلوب.

ولهذا قال ابن تيمية في كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» : «أن النفوس متى اغتذت بالبدع لم يبق فيها فضل للسنن بمنزلة الجسد إذا تغذى بما يضره فإنه يألفه، وينفر، ويرفض ما ينفعه». اهـ

فهناك علاج يستخدمه الصوفية لأمراض النفوس بالرياضة، وهي أن يشقوا على أنفسهم بأعمال ما أنزل الله بها من سلطان؛ بزعم أنهم يريدون ترويض النفس أو بالخلوة. والخلوة إنما حصلت من النبي ﷺ قبل البعثة، أما بعد البعثة فلم تحصل منه خلوة.

وإن الإنسان ليتعجب من ترك الجمعة والجماعة، ومن ترك مخالطة الناس في أمور البر والتقوى؛ ليخلو الإنسان بنفسه وشياطينه، وربما ينتظر بعضهم أن يوحى إليه، وأن يخاطب؛ ولهذا يخلو أحدهم، ثم يقول : حدثني قلبي عن ربي، وإنما حدثته نفسه، أو حدثه شيطانه.

فإذًا ؛ الذي يريد أن يعالج نفسه، وأن يزكيها بغير طريق الرسل؛ كالمريض الذي يريد أن يعالج نفسه برأيه، ولا يرى ضرورة إلى الرجوع إلى الأطباء.

وقوله : «فالرسل أطباء القلوب»؛ بمعنى أنهم الهداة هداية الدلالة والإرشاد. وإلا فإن صلاح القلوب إنما هو بيد الرب ﷻ وحده.

ويقول ابن القيم أيضًا : «وأما الأبدان الزكية فهي التي زكت بطاعة الله، ونبتت على أكل الحلال. فمتى خلصت الأبدان من الحرام، وأدناس البشرية، التي ينهى عنها العقل والدين والمروءة، وطهرت الأنفس من علائق الدنيا ؛ زكت أرض القلب. فقبلت بذر العلوم والمعارف. فإن سقيت بعد ذلك بماء الرياضة الشرعية النبوية المحمدية وهي التي لا تخرج عن علم، ولا تبعد عن واجب ولا تعطل سنة أنبتت من كل زوج كريم، من علم وحكمة وفائدة». اهـ

قال أبو محمد : أيضًا ذكر نقلًا آخر عن ابن القيم رحمه الله ؛ العجيب أن أئمة السلف ذكروا أن من جملة ما يدخل في السنة أكل الحلال، فأكل الحلال من جملة ما يدخل في السنة، وفي العقيدة. فيقول : «وأما الأبدان الزكية : فهي التي زكت بطاعة الله، ونبتت على أكل الحلال. فمتى خلصت الأبدان من الحرام، وأدناس البشرية، التي ينهى عنها العقل والدين والمروءة، وطهرت الأنفس من علائق الدنيا»؛ يعني من محبة الدنيا والركون إليها.

«زكت أرض القلب فقبلت بذر العلوم والمعارف، فإن سقيت بعد ذلك بماء الرياضة الشرعية النبوية المحمدية وهي التي لا تخرج

عن علم، ولا تبعد عن واجب ولا تعطل سنة أنبتت من كل زوج كريم، من علم وحكمة وفائدة». فهما أمران كما قد ذكرنا : تخلية، وتحلية.

أرأيتم لو أن شخصًا زرع زرعًا فحرص على سقي الزرع، وعلى إضافة السماد العضوي، السماد الطبيعي -دعك من أنواع الأسمدة الأخرى-، هذا شخص زرع حقلًا، وهو يسقي هذا الزرع، ويوفر له الماء، ويضيف إليه الأسمدة الطبيعية التي تفيده وتغذيه؛ لكن لا يهتم بتخليص الزرع من الآفات الزراعية، هذا الزرع لما ينبت هناك آفات تنبت معه أو تصيبه. فهناك شيء يسميه أهلنا : -الكديب-؛ أي النظافة، ينظفونها من النباتات التي تخرج معه ؛ لأنها تشارك الزرع في الغذاء، وهناك بعض النباتات الضارة التي تفتك بالزرع. فإذا أردت أن تُكرم بإنتاج وفير من زراعتك بعد توفيق الله أنت محتاج إلى سقي الزرع، وإلى إضافة الأسمدة، وإلى مكافحة الآفات التي تضعف الزرع أوتقتله ، هذه الآفات منها ما يشارك الزرع في الغذاء، ومنها ما يصيب الزرع بالمرض، ومنها الآفات أيضًا التي تـأتي ممثلة في الجراد، والحشرات.

هكذا النفس؛ لا بد أن تغذيها بالعلم النافع، والعمل الصالح، ولا بد أن تصونها بعد توفيق الله بالبعد عن الذنوب والمعاصي، فهذا معنى كلام ابن القيم رحمه الله.

***

فصل : السبب الأول

وتزكية النفوس تتحقق بأمور كثيرة نذكر جملة منها بإيجاز :

أولًا : التوحيد ؛ إن أعظم وآكد طريق لتزكية النفوس؛ تحقيق التوحيد. قال ﷻ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ ﴾ [فصلت : ٦، ٧]. **قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم : الزكاة ها هنا ؛ هى التوحيد : شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذى به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفى إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه؛ وهو أصل كل زكاة ونماء. فسمى الله تعالى في الآية السابقة التوحيد زكاة كما وصف ﷾ الشرك بالنجاسة ؛ فقال ﷻ :** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: ٢٨].

قال أبو محمد –عفا الله عنه– : شرع الباحث –جزاه الله خيرًا– في ذكر أسباب ووسائل تزكية النفوس تفصيلًا. فتـزكية النفوس على وجه الإجمال والعموم؛ تكون بالأعمال الصالحة التي لا تكون كذلك إلا بالإخلاص والمتابعة وتكون بترك الذنوب والمعاصي.

قال : «وتزكية النفوس تتحقق بأمور كثيرة نذكر جملة منها بإيجاز»؛ سيذكر بعض أسباب ووسائل تزكية النفوس : أولها، وأعظمها، وأهمها، وشرطها : توحيد الله ﷻ. والتوحيد : «هو إفراد الله بكل ما يختص به من الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات».

قال : «التوحيد. إن أعظم، وآكد طريق لتزكية النفوس تحقيق التوحيد؛ قال تعالى : ﴿**وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾؛ ثم نقل عن ابن القيم ؒ أن أكثر المفسرين من السلف، ومن بعدهم ذكروا أن الزكاة ها هنا؛ هي التوحيد.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾. قال بعض السلف كابن عباس ؆ : «لا يشهدون أن لا إله إلا الله».

في تفسير الحافظ ابن كثير ؒ : ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : «يعني الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله»؛ وكذا قال عكرمة.

وقال السدي ؒ : «الذين لا يؤتون الزكاة؛ أي لا يدينون بالزكاة».

وقال قتادة : «يمنعون زكاة أموالهم». وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين واختاره ابن جرير؛ وفيه نظر لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة على ما ذكره غير واحد وهذه الآية مكية؛ اللهم إلا أن يقال لا يبعد أن يكون أصل الزكاة كان مأمورًا به في ابتداء البعثة.

فأما الزكاة ذات النصب والمقادير، فإنما بُيّن أمرها بالمدينة. ويكون هذا جمعًا بين القولين.

فقوله ﷻ : ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦- ٧]. فيها قولان لعلماء التفسير :

القول الأول : أكثر علماء التفسير على أن المراد بالزكاة هنا زكاة النفس من الشرك؛ وذلك بالتوحيد، وهذا القول مما يرجحه، ويؤكده أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ هذه الآية من سورة فصلت وهي سورة مكية، وآنذاك لم تفرض الزكاة إذ الزكاة ذات النصب والمقادير إنما فرضت بالمدينة.

القول الثاني : الحافظ ابن كثير ﷺ ذكر أن القول الثاني؛ وهو المنقول عن السدي وعن قتادة وعن كثير من المفسرين واختاره ابن جرير أن المقصود بها زكاة المال. وقال إن هذا القول فيه نظر إلا أن يقال المراد

مطلق الزكاة، وليس الزكاة ذات النصب والمقادير فإن هذا قد اتفق على أنه قد بين أمرها بالمدينة.

والأقرب : -والله أعلم- ما اختاره ابن القيم هنا أن هذه الآية فيها؛ أن زكاة النفس لا يمكن أن تحصل بغير التوحيد.

والمقصود بـ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ؛ ليس النجاسة الحسية، بل المقصود النجاسة المعنوية خلافًا لابن حزم الذي ذهب إلى أنها نجاسة حسية، هذا خطأ. والمقصود؛ تقذر قلوبهم بالشرك. والعلماء قالوا : الشرك نجاسة لا تزيلها بحار الدنيا، لا يزيلها إلا التوحيد، توحيد الله ﷻ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾ [الحج: ٣٠] ؛ فالأوثان رجس.

لهذا قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾ [المدثر: ١ - ٤] ؛ أي : طهر قلبك من الشرك؛ لأن الشرك نجاسة.

* * *

يقول ابن القيم رحمه الله : «**التوحيد ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه فأدنى شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه فهو كأبيض ثوب يكون يؤثر فيه أدنى أثر وكالمرآة الصافية جدا أدنى شيء يؤثر فيها**».

قال أبو محمد : وهذا الكلام المقصود منه أن يحرص المسلم على سلامة سماء توحيده. قال : «التوحيد ألطف شيء، وأنزهه، وأنظفه، وأصفاه فأدنى شيء يخدشه ويدنسه، ويؤثر فيه فهو كأبيض ثوب يكون يؤثر فيه أدنى أثر». ولهذا فالمعاصي تؤثر في التوحيد. نعم؛ المعاصي لا تزيل التوحيد -خلافًا للخوارج الذي يكفرون بالذنوب- ولكن المعاصي تؤثر في التوحيد، وتضعفه، فالذي يريد أن يصيب التزكية التي بعثت الرسل بها فعليه أن يحرص على توحيده.

* * *

قال : والتوحيد زكاة حيث ينمي ثواب الأعمال الصالحة ويبارك فيها؛ فإن التوحيد إذا تمكن من طاعة المرء، كانت هذه الطاعة خالصة لوجه الله تعالى؛ فإن أجرها عظيم وثوابها جليل.

قال أبو محمد : معنى هذا الكلام أن الأعمال تتفاضل هذا أمر متفق عليه بين علماء أهل السنة أن الأعمال تتفاضل؛ حتى قال علماؤنا

: إن الرجلين يصليان متجاورين في الصف خلف الإمام؛ أليست صلاتهم واحدة؟ بلى، لأنهما مقتديان بالإمام.

الرجلان يصليان متجاورين في صف واحد، وما بين صلاتيهما كما بين السماء والأرض. فالأعمال تتفاضل، تتفاضل بها في الباطن وبالظاهر. وهذا الكلام فيه أن من أسباب تفاضل الأعمال التوحيد، فكل ما تمكن التوحيد من القلب ومن هذه الطاعة، وقوي تجريد الإخلاص لله رب العالمين، فإن الثواب يعظم، ويزيد.

وأما الشِّرك ؛ فهو محبط لجميع القربات موجب للخلود في نار جهنم، والشرك أيضًا سلم الحرمان. كما قال تعالى : ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ۝٢٢﴾ [الإسراء: ٢٢] **أي مذمومًا لا حامد لك، ومخذولًا لا ناصر لك.**

قال أبو محمد : من أعظم أسباب الخذلان الشرك، ومن صور الخذلان ألا يوفق العبد للصالحات؛ فقال ﷻ ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٦]. و قال تعالى : ﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ۝٢٢ ﴾ [الإسراء: ٢٢]. مذمومًا : لا حامد لك ؛ كأنك مذموم بكل لسان. مخذولًا : لا ناصر لك.

السبب الثاني

قال أبو محمد : ومن أسباب تزكية النفوس : الدعاء. ففي «صحيح مسلم» عن زيد بن أرقم؛ أنه كان من دعاء النبي ﷺ قوله : «اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»[1].

فتزكية النفوس بيد الله ﷻ. وقال الله تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢١].

قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري ؒ في تفسير هذه الآية : «يقول تعالى ذكره : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ أيها الناس ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾؛ لكم، ما تَطَهَّر منكم من أحد أبدا من دنس ذنوبه». الذنوب هذه تورث وسخًا، ومرضًا، وضعفًا في القلب. «وشركه، ولكن الله يطهرُ من يشاء من خلقه». انتهى.

وعليه فمفتاح التزكية الأعظم، وسبيلها الأقوم بعد التوحيد؛ هو الدعاء، والافتقار إلى الله ﷻ. كان من دعاء النبي ﷺ : «**اللهُمَّ آتِ**

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»[١].

* * *

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٢٢).

فصل : السبب الثالث

ثالثا : الصلاة ؛ وعن أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ : ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ»؟ قَالُوا : لا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قَالَ : «فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا**»[1].

قال ابن العربي رحمه الله : «**وجه التمثيل أن المرء كما يتدنس بالأقذار المحسوسة في بدنه وثيابه، ويطهره الماء الكثير. فكذلك الصلوات تطهر العبد عن أقذار الذنوب حتى لا تبقي له ذنبًا إلا أسقطته**». اهـ

قال أبو محمد -عفا الله عنه- : السبب الثاني على حسب ما ذكره الباحث، والثالث على حسب ما قررناه؛ لأننا أضفنا الدعاء.

ربنا ﷻ يقول : ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١]. ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ ؛ [الأعلى : ١٤- ١٥].

فالصلاة الخاشعة من أعظم أسباب الفلاح وتزكية النفوس، ومن أعظم أسباب غفران الذنوب. جاء في الحديث الذي أخرجه الطبراني

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٨) ومسلم (٦٦٧)

عن ابن مسعود عن نبينا محمد ﷺ أنه قال: «**تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ**»[1]؛ وفي حديث آخر عند الطبراني: «**إِنَّ الْمُؤَذِّنَ إِذَا نَادَى لِلصَّلاَةِ نَادَى مَلَكٌ: أَيُّهَا النَّاسُ قُومُوا إِلَى نَارِكُمْ الَّتِي أَوْقَدْتُمُوْهَا عَلَى أَنْفُسِكُم فَاطْفِئُوْهَا**»[2]؛ يعني بالصلوات الخمس.

فالصلوات الخمس تذهب الذنوب والخطايا وتزكو بها النفوس، لكن هل كل صلاة تُحصّل ذلك؟ لا؛ الآن ذكرنا قول الله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾؛ فقطع الله ﷻ بالفلاح لهؤلاء المؤمنين الذين من أول صفاتهم: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾.

ويقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. أهي كل صلاة ؟ لا؛ أنت لن تحظى بخيرات وثمرات الصلاة إلا بالخشوع، وحضور القلب، وبأن تؤدى الصلاة مقتديًا فيها بنبينا ﷺ القائل: «**صَلُّوْا كَمَا رَأَيْتُمُوْنِي أُصَلِّي**».[3]

---

(١) أخرجه الطبراني في (المعجم الاوسط) رقم (٢٢٢٤).

(٢) أخرجه الطبراني في (المعجم الأوسط) (٩/ ١٧٣).

(٣) أخرجه االبخاري (٦٣١) ومسلم (٦٧٤).

قال : فعن أبي هريرة ﵁ قال أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «**أَرَأَيْتُمْ**» يعني أخبروني «**لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ**»؛ والنهر الذي بباب أحدنا قريب، أم بعيد؟ قريب، الاغتسال منه سهل، أم صعب؟.

يا أيها الناس؛ إن شفاء قلوبكم، وغسل أوزراكم وذنوبكم إنما هو بأمر قريب، وبأمر سهل. «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا**»؛ وفي بعض الألفاظ «**كمثل نهر غمر**» ماؤه كثير. « **يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ**»؛ ينغمر فيه كل يوم «**خَمْسًا**» خمس مرات. «**مَا تَقُولُ : ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟**»؛ الدرن هو الوسخ. وفيه : أن الذنوب وسخ القلوب .

«**قَالُوا : لا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قَالَ: «فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِن الْخَطَايَا**». تذهب الصلوات الخمس الخطايا كما يذهب الماء الأوساخ التي في الجسد؛ وتزكو النفوس بسبب هذه الصلاة.

«**قال ابن العربي**»؛ هو أبو بكر بن العربي المالكي؛ فيما نقله ابن حجر عنه. «**وجه التمثيل أن المرء كما يتدنس**»؛ يعني يتوسخ، ويتقذر «بالأقذار المحسوسة في بدنه وثيابه، ويطهره الماء الكثير، فكذلك الصلوات تطهر العبد عن أقذار الذنوب حتى لا تبقي له ذنبًا إلا أسقطته، وأذهبته».

فصل : السبب الرابع

رابعا : الصدقة. قال الله تعالى : ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التوبة: ١٠٣].

يقول ابن تيمية : «أن الزكاة تستلزم الطهارة؛ لأن معناها معنى الطهارة. قوله : ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾**؛ من الشر** ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ **بالخير. فقوله :** ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾**؛ دليل على أن عمل الحسنات يطهر النفس ويزكيها من الذنوب السالفة فإنه قاله بعد قوله :** ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ [التوبة: ١٠٢]. **فالتوبة والعمل الصالح يحصل بهما التطهير والتزكية».**

قال أبو محمد -عفا الله عنه- : السبب الرابع على حسب ما ذكرنا من أسباب تزكية النفوس؛ الصدقة. وهي تشمل الزكاة الواجبة، والصدقة المستحبة. قال تعالى : ﴿تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾. قال السعدي في تفسيره : «أي : تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة.

﴿وَتُزَكِّيهِم﴾؛ أي : تنميهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتنمي أموالهم.

ثم نقل الباحث –جزاه الله خيرًا–عن ابن تيمية ﵀ أنه قال : «إن الزكاة تستلزم الطهارة؛ لأن معناها معنى الطهارة»؛ وهو جزء معناها. فالزكاة تطهر من الشر، وتزيد الخير، لأنها من عمل الحسنات، وربنا يقول : ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤].

قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾؛ هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾. [التوبة : ١٠٢]. ففيه : أن دفع الزكاة من أسباب غفران الذنوب، ومن أسباب التطهير والتزكية.

قال ﷺ : «إِنَّمَا الصَّدَقَةُ أَوْسَاخُ النَّاسِ يَغْسِلُوْنَهَا عَنْهُمْ»[1].

قال أبو محمد : هذا ليس مرفوعًا للنبيﷺ. لأن المؤلف عزاه إلى الإمام مالك في «المؤطأ» وأن الألباني صححه في «صحيح الترغيب».

هذا الخبر ليس عن النبيﷺ، بل هو موقوف على عبد الله بن الأرقم من قوله. ولكن ثبت في «صحيح مسلم» عن عبد المطلب بن

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» رقم (١/ ١٠٠١) وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٣٦).

ربيعة بن الحارث؛ قال رسول الله ﷺ : «**إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَنْبَغِي لِآلِ مُحَمَّدٍ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ**»[١].

ولما سأل العباس رسول الله ﷺ أن يستعمله على الصدقة؛ فقال ﷺ : «مَا كُنْتُ لِأَسْتَعْمِلَكَ عَلَى غُسَالَةِ ذُنُوبِ النَّاسِ»[٢].

قال أبو محمد : وقد أخبر النبي ﷺ أن الزكوات الواجبة هي أوساخ الناس؛ يعني الإنسان حينما يخرجها يذهب الأوساخ عن نفسه.

الآن إذا تأملتم هذين السببين؛ وهما الصدقة والصلاة؛ وجدتم أن الذي يجمعهما أنهما من الطاعات والأعمال الصالحة. فجميع فعل الطاعات فرضها ونفلها القلبي منها والفعلي والقولي؛ من أسباب تزكية النفوس.

***

(١) أخرجه مسلم رقم (١٠٧٢).

(٢) أخرجه ابن حزيمة والحاكم في المستدرك رقم (٥٥٢٧) وآخر حكم للألباني أنه **منكر**.

فصل : السبب الخامس

خامسًا : ترك المحرمات عمومًا. يقول ابن تيمية ﵀ في هذا الشأن : «النفس والأعمال لا تزكو حتى يزال عنها ما يناقضها ولا يكون الرجل متزكيًا الا مع ترك الشر فإنه يدنس النفس ويدسيها». اهـ

قال ابن قتيبة ﵀ : «دسَّهَا ؛ أي أخفاها بالفجور والمعصية فالفاجر دسَّ نفسه أي قمعها وخباها وصانع المعروف شهر نفسه ورفعها وكانت أجواد العرب تنزل الربى لتشهر أنفسها واللئام تنزل الأطراف والوديان». اهـ

قال أبو محمد –عفا الله عنه– : السبب الخامس؛ ترك المحرمات عمومًا. نحن أشرنا حينما عرفنا التزكية أن عماد تزكية النفوس هو : فعل الطاعات وترك المعاصي والسيئات.

يقول ابن تيمية في هذا الشأن : «النفس والأعمال لا تزكو حتى يزال عنها ما يناقضها»؛ قد مضى شيء من هذا الكلام. «ولا يكون الرجل متزكيًا إلا مع ترك الشر فإنه»؛ أي الشر «يدنس النفس ويدسيها». اهـ

قال ابن قتيبة : «**دسَّاها** : أي في تفسير قوله تعالى : ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾. أي أخفاها بالفجور والمعصية». لأن الذنوب والمعاصي تصيب النفس بالذل، فالذي يرتكب الذنوب والمعاصي؛ ساعٍ في إخمال نفسه وإذلالها.

قال ابن قتيبة رحمه الله : «وصانع المعروف شهر نفسه ورفعها»؛ الرفعة تحصل بالطاعات ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ثم ذكر أن أجواد العرب الكرماء ينزلون الربى، والأماكن المرتفعة؛ ليشهروا أنفسهم؛ كأنهم يدعون الناس إلى أن يقبلوا عليهم؛ ليكرموهم. بينما البخلاء واللئماء ينزلون الأماكن المنخفضة حتى يكونوا بارزين وحتى لا يأتيهم أحد.

إذًا؛ ترك الذنوب والمعاصي من أعظم أسباب تزكية النفس. لأننا قررنا وهو أمر معلوم لديكم أن الإيمان يزيد وينقص؛ كما أن كثيرًا من الأشياء الحسية تزيد وتنقص. أنت الآن إذا تغذيت غذاءً نافعًا ما الذي يحصل لك؟ تنمو، وتزيد؛ لكن إذا أهملت التغذي تضعف ثم يصيبك الهزال.

الذنوب والمعاصي تميت القلوب؛ كما قال ابن المبارك :

رَأَيْتُ الذُّنُوْبَ تُمِيْتُ القُلُوْبَ وَقَدْ يُوْرِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرْكُ الذُّنُوْبِ حَيَاةُ القُلُوْبِ وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُها

حياة القلوب في ترك الذنوب؛ لأن الذنوب تمرض القلوب، وتضعفها، وربما تميتها.

ويقول ابن القيم : «أن زكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة، قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾؛ [النور: ٢١]. **وذكر ذلك** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكى هو باجتناب ذلك». اهـ**

قال أبو محمد : أيضًا نقل عن ابن القيم أنه قال : «أن زكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة»؛ أخلاط الجسد في عرف الأقدمين هي الدم والبلغم والسوداء والصفراء وإذا فسد شيء منها أضرّ وكذلك القلب يسود ويُظلم بسبب الذنوب والمعاصي.

فصل

وقد أمر الله تعالى بغض البصر وحفظ الفرج؛ وقال سبحانه وتعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠﴾؛[النور : ٣٠] **فاجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن طهر ونقاء وعفاف كما سمى الشارع الفواحش من الزنا واللواط نجاسات وخبائث، وقاذروات.**

قال تعالى : ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ۝٧٤﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقالت اللوطية : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ [النمل: ٥٦]؛ **فأقروا مع شركهم، وكفرهم أنهم هم الأخباث الأنجاس، وأن لوطًا، وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له.**

وقال ﷻ في حق الزناة : ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ ؛ [النور: ٢٦] . **وقال ﷺ : «مَنْ أَصَابَ مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ شَيْئًا فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ، فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِي لَنَا صَفْحَتَهُ، نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهِ».**

قال أبو محمد -عفا الله عنه- : ذكر -جزاه الله خيرًا- الأدلة على أن ترك الذنوب والمعاصي من أسباب تزكية النفوس.

الدليل الأول : قول الله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ [النور: ٣٠].

فمن أسباب حصول تزكية النفس؛ غض البصر وإحصان الفرج من الزنا واللواط وغيرهما؛ وبدأ الله ﷻ بالأمر بغض البصر؛ لأن الذي يطلق البصر يخشى عليه أن يقع في الزنا؛ لأن من مقدمات الزنا، ومن البواعث عليه إطلاق النظر.

هذه الآية؛ فيها أن ترك النظر إلى المحرمات وأن ترك الزنا من أسباب تزكية القلوب والنفوس. فمتى تزكو نفس ذاك الذي ابتلي بالنظر إلى النساء ومحاسنهن؛ وربما أدمن النظر إلى الأفلام والصور الإباحية التي تفتك بقلبه ونفسه فتكاً ذريعا.

وإياك أن تظن أن قوله ﷻ : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾؛ يسمح لك بالنظر للنساء؛ لأنه لم يمنع من النظر مطلقًا !؛ فلا بد أن نجمع بين هذه الآية على القول بأن «**من**» فيها للتبعيض، وبين أحاديث عن النبي ﷺ.

من الأحاديث؛ أن جرير بن عبد الله ﷺ كما عند «سنن أبي داود» قال : «سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة؛ فقال : «**اِصْرِفْ بَصَرَكَ**».[(١)]

نظر الفجأة يعني أن يقع بصرك فجأة من غير تقصد.

وجاء أيضًا في «سنن أبي داود» أن النبي ﷺ قال لعلي : «**يَا عَلِيُّ ! لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّمَا لَكَ الأُوْلَى، وَلَيْسَتْ لَكَ الثَّانِيَةَ**»[(٢)]. النظرة الأولى نظرة الفجأة لست مؤاخذًا عليها، لكن لا تتبع النظرة النظرة.

جاء في الحديث : «**كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَا مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَة فالعينان زِنَاهُمَا النَّظَرُ**»[(٣)].

ما أكثر هذا الزنا في هذا العصر؛ بسبب هذا السيل من الصور العارية التي ضجت بها المجتمعات؛ -أسأل الله السلامة والعافية !-.

الدليل الثاني : قوله تعالى : ﴿قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرۡيَتِكُمۡ﴾ لماذا ؟ ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ يتطهرون بماذا ؟ بترك اللواط.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٤٨)، وأحمد (١٩٢٢٠)، والدارمي (٢٦٤٣)

(٢) أخرجه أبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧)، وأحمد (٢٢٩٩١)

(٣) البخاري، (٦٦١٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٧)

ففيه : أن ترك اللواط تطهر وتزكية. وهذا هو الذي تريد أن تصل إليه المجتمعات الغربية والحكومات الغربية في أوربا، وأمريكا وأن كل من يعارض المثلية -وهي اللواط والسحاق- فإنه لا بد أن يُخرج؛ لأنه لا يتفق مع قيم هذه الحكومات والمجتمعات. الله المستعان

قال : «**مَنْ أَصَابَ مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ شَيْئًا فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ، فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِي لَنَا صَفْحَتَهُ، نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهِ**»؛

هذا الحديث رواه الإمام مالك في «الموطأ» عن زيد بن أسلم مرسلًا؛ وضعفه الألباني في «إرواء الغليل/ برقم ١٣٢٨».

وفي «سلسلة الأحاديث الصحيحة/ برقم ٦٦٣» ؛ أن البيهقي روى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قامَ بعْدَ أنْ رَجَمَ الأسْلَمِيَّ، فقالَ : «**اجْتَنبوا هذه القاذُورةَ الَّتي نَهى اللهُ عنها، فمَن ألَمَّ فلْيَسْتَتِرْ بسِتْرِ اللهِ، ولْيَتُبْ إلى اللهِ؛ فإنَّه مَن يُبْدِ لَنا صَفْحتَه نُقِمْ عليه كِتابَ اللهِ عز وجل**».[1]

فما نصيحتنا لمن وقع في الزنا؛ -بعض الناس يقع في الزنا- يصيبه ندم شديد، يأتي إلى بعض من يظن فيه العلم والصلاح؛ وهذا ما ينبغي أنت سترك الله لا تفضح نفسك.

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٨٠٥٦) والحاكم في «المستدرك » (٧٦١٥) صحيح على شرط الشيخين.

يقول : أنا زنيت.

فيجيبه : قاتلك الله! اذهب إلى الحاكم. لا تأمره أن يذهب إلى حاكم.

قل : تب إلى الله ﷻ !، ومن تاب تاب الله عليه.

«**فمن ألم فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ الله، فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِي لَنَا صَفْحَتَهُ**» يعني يعترف «**نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهَ**». والقاذورة؛ هي الوسخ في لغة العرب، والفعل القبيح كالزنا.

❊ ❊ ❊

فصل

ثمة نقل مهم يتعلق بتزكية النفوس كان ينبغي أن نثبته ونمليه عليكم في أول دروسنا، ولكن فاتني ذلك وعليه فسنمليه عليكم الآن.

قال الحافظ ابن القيم رحمه الله في «إغاثة اللهفان ١/ ٧٤»؛ ضمن فصل طويل مفيد. وهذه دعوة لمراجعة هذا الفصل، والاستفادة منه فراجعه لأهميته، ونلخص منه هذا الفصل الآتي :

قال رحمه الله : «وقد وصف سبحانه النفس فى القرآن بثلاث صفات : المطمئنة، والأمارة بالسوء، واللوامة؛ وهي واحدة باعتبار ذاتها، وثلاث باعتبار صفاتها ... فالنفس إذا سكنت إلى الله، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتاقت إلى لقائه، وأنست بقربه، فهى مطمئنة، وهى التى يقال لها عند الوفاة : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ٢٨﴾ [الفجر: ٢٧- ٢٨]. ... إذا كانت بضد ذلك؛ فهى أمارة بالسوء تأمر صاحبها بما تهوى من شهوات الغى، واتباع الباطل، فهى مأوى كل سوء، وإن أطاعها قادته إلى كل قبيح وكل مكروه. وقد أخبر سبحانه أنها أمارة بالسوء ولم يقل : «آمرة» لكثرة ذلك منها». اهـ

ثم قال : «وأما اللوامة، فقال مجاهد : هى التى تُنَدِّم على ما فات وتلوم عليه».

وقال الحسن: «إن المؤمن، والله، ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته؛ يستقصرها فى كل ما يفعل فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر ليمضى قدما لا يعاتب نفسه».

ثم من جملة كلامه ﷺ : «والنفس قد تكون تارة أمارة، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة، بل فى اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا. والحكم للغالب عليها من أحوالها، فكونها مطمئنة وصف مدح لها، وكونها أمارة بالسوء وصف ذم لها، وكونها لوامة ينقسم إلى المدح والذم، بحسب ما تلوم عليه». انتهى

إذًا -بارك الله فيكم-؛ النفس التي ذكرها الله ﷻ في القرآن في مواضع كثيرة، بل وأقسم بها : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾﴾؛ هذه النفس التي ستُحضر يوم القيامة، ويُحشر صاحبها ليلاقي جزاء أعماله ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران : ٣٠].

تحشر الأنفس متزاوجة ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ ﴾ [التكوير : ٧] يعني : «أُلحِقَ كلُّ إنسان بشكله، وقُرِنَ بين الضُّرَباءِ والأمثال».

هذه النفس؛ هي واحدة باعتبار ذاتها، لكنها ثلاث باعتبار صفاتها. فمن ابتلي بنفس استمرأت الذنوب والمعاصي، وركنت إلى المحرمات؛ لقسوة قلب صاحبها، فهي تأمر صاحبها بالسوء ينبغي ألا يصاب صاحبها بالقنوط، وباليأس من رحمة الله. فإنه قد يُوفق لتوبة وأوبة ورجوع وصلاح وإصلاح.فعليه أن يُبادر بالتوبة قبل نزول الموت وحصول الفوت.

ربنا ﷻ يقول : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ ﴾ [الفجر: ٢٧ – ٣٠]. هذه النفس المطمئنة.

ويقول ربنا ﷻ : ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾ [القيامة: ٢] ؛ ولا هنا صلة؛ للتأكيد. وهذه النفس اللوامة.

ويقول ربنا ﷻ : ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾ [يوسف: ٥٣]. وهذه النفس الأمارة. وأشار ابن القيم رحمه الله إلى أن الله ﷻ لم يقل «آمرة» على زنة اسم الفاعل، بل قال «أمّـارة» على زنة صيغة المبالغة؛ ليشير إلى كثرة أمرهـا بالسوء.

فالنفس المطمئنة هي التي اطمأنت إلى ذكر الله ﷻ وأنابت إليه، واشتاقت إلى لقائه، وأنست بقربه فصاحبها في جنات قبل الجنات، وفي نعيم قبل النعيم المقيم؛ صاحبها في لذة وحلاوة إيمان عظيمة.

أما النفس الأمارة بالسوء؛ فهي هي التي تأمر صاحبها بما تهوى من شهوات الغي واتباع الباطل. وكم نرى من هؤلاء في مجتمعاتنا.

واللوامة؛ قد تلوم صاحبها على التفريط، وقد تلومه لخبثها وهي راجعة إلى الأمارة بالسوء تلومه على شيء من الدين والصلاح؛ أعوذ بالله!

لهذا ذكر أن النفس المطمئنة وصف مدح، والنفس الأمارة وصف ذم، أما النفس اللوامة فكونها لوامة؛ ينقسم إلى مدح وذم بحسب ما تلوم عليه؛ -أعوذ بالله-. قد تخبث النفس فتلوم على الخير، ولا ترضى بالبر.

إذًا؛ ما هو مبتغى من جاهد نفسه، وحاسبها ليزكيها؛ ما مبتغاه؟ أن تكون نفسه مطمئنة .

❊ ❊ ❊

فصل : السبب السادس

قال أبو محمد : سادسًا : من الأمور التي تكون سببا في تزكية النفس ؛ محاسبة النفس.

وتعريف محاسبة النفس؛ عرّفها الماوردي رحمه الله في «أدب الدنيا والدين» بقوله : «أن يتصفح في ليله ما صدر من أفعال نهاره، فإن الليل أخطر للخاطر وأجمع للفكر. فإن كان محمودًا أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذمومًا استدركه إن أمكن وانتهى عن مثله في المستقبل». اهـ

وقال ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين» -بتصرف- : «وهي التمييز بين ما له وعليه، فيستصحب ما له، ويؤدي ما عليه، لأنه مسافر سفر من لا يعود». اهـ

فمحاسبة النفس : أن تتصفح ما صدر عنك من أقوال، وأفعال، فما كان منها محمودًا بأن كان طاعة وقربة نظرت فيه، هل أديته وفق الشروط التي لا يصح إلا بها من جهة الإخلاص والمتابعة، فإن وفقت لذلك حمدت الله عز وجل ؛ لأن التوفيق منه، وأمضيت هذا العمل، واستمررت عليه، وأتبعته بما شاكله، وبما شابهه وضاهاه.

فإن كان مذمومًا، تداركته إن أمكن؛ إن كان يمكن الإصلاح تداركته، وإلا تبت إلى الله ﷻ منه، وحرصت على ألا تواقعه في المستقبل.

محاسبة النفس من أعظم منازل المسافرين إلى الله ﷻ؛ ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤﴾ [القيامة: ١٤].

فإذا استيقظت من نومك؛ انظر هل وُفقت إلى قيام الليل، وهل حين قمت صليت بخشوع، وحرصت على ألا يراك أحد. كان بعض السلف يبل وسادته عشرين سنة بكاءً من خشية الله وامرأته إلى جنبه لا تشعر ولا تعلم.

من أعظم المهمات أن تحرص على الإخلاص؛ وأن تخفي عملك جهدك. مخذول من لم تكن له خبيئة من عمل صالح. ثم أيضًا تحاسب نفسك؛ هل استيقظت لصلاة الفجر، هل أديتها في المسجد؟ وهكذا تحاسب من ؟ تحاسب شريكك ؟ أم تحاسب نفسك ؟ أيهما أولى ؟ ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤﴾؛ وهل حين فرغت من صلاة الفجر، جلست إلى أن أشرقت الشمس وارتفعت قيد رمح، وصليت صلاة الإشراق؟!

وهل حين رجعت إلى بيتك أقبلت على مصحفك؟ وراجعت العلم، أم رجعت مستعجلًا لتمسك بجهازك وأنت واثق أنه لا أحد يراك ولكن الله يراك؟ وجعلت تطالع، وتشاهد ما حرمه الله.

فتذكر قول الله : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق : ١٨]. هل جعلت على لسانك حارسًا من قلبك وعقلك ومعرفتك بالشرع؛ فلم تتكلم إلا بما يقربك إلى الله؟!؛ «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ**».

والله.. نحن متورطون في مصائب كبيرة؛ نحن في خطر عظيم. هذه النفوس تحتاج إلى محاسبة ومجاهدة؛ وكذلك تتصفح في نهارك أو في ليلك، وتنظر إلى ما فعلته مما يرضاه الله، وتحمد الله عليه. وإلى ما يسخطه الله ﷻ فإن تيسر التدارك، وإلا فعجل بالتوبة. وهذا معنى المحاسبة.

وأما أدلة مشروعيتها فمنها قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر: ١٨]. هذه المحاسبة؛ انظر ما الذي قدمته لغد أي ليوم القيامة؛ فإن الذي ينفعك فيه هو العمل الصالح.

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن مسروق قال: «**إِنَّ الْمَرْءَ لَحَقِيقٌ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَجَالِسُ يَخْلُو فِيهَا فَيَذْكُرَ فِيهَا ذُنُوبَهُ فَيَسْتَغْفِرَ مِنْهَا**».[1]

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب «محاسبة النفس» عن ميمون بن مهران قال: «**لَا يَكُونُ الرَّجُلُ تَقِيًّا حَتَّى يَكُونَ لِنَفْسِهِ أَشَدَّ مُحَاسَبَةً مِنَ الشَّرِيكِ لِشَرِيكِهِ**»[2].

وأخرج أيضًا عن الحسن البصري أنه قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ وَكَانَتِ الْمُحَاسَبَةُ مِنْ هِمَّتِهِ**».

«فزكاة النفس وطهارتها موقوفة على محاسبتها؛ يعني مما يعين على تزكية النفس وتطهيرها مما يبغضه الله ﷻ ويكرهه أن تحاسب نفسك».

وقد أخرج أحمد في «الزهد» وابن أبي الدنيا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا؛ فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ**؛ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ

(١) الزهد للإمام أحمد (١/ ٢٨٣).

(٢) محاسبة النفس (١/ ٢٥)

خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ [الحاقة: ١٨][1].

وقوله: «زكاة النفس وطهارتها موقوفة على محاسبتها». أي: فلا تزكو ولا تطهر لا تصلح البتة إلا بمحاسبتها. وإذا كانت تزكية النفس من الواجبات فتكون محاسبتها كذلك. -والله أعلم-.

«**إلا بمحاسبتها**»؛ هذا أحد وجوه أهمية محاسبة النفس؛ أنها تقود إلى زكاة النفس وطهارتها. ومن وجوه أهمية محاسبة النفس أيضًا؛ وهي تلتقي مع التزكية:

الوجه الأول: أنها السبيل للاطلاع على عيوب النفس والعمل، ومواطن ضعف النفس المؤدي إلى الزلل. يعرف الإنسان مواطن ضعفه التي توقعه في الزلل وفي الذنوب. فيعمل على علاجها، وإصلاحها.

الوجه الثاني: أنها تحمل العبد على الاستعداد للرحيل بإعداد الزاد الذي هو بالنجاة والفوز كفيل.

وَمَا هَذِهِ الأَيَّام إِلَّا مَرَاحِل ... يَحُثُّ بِهَا دَاعٍ إِلَى المَوْتِ قَاصِدُ
وَأَعْجَبُ شَيْءٍ لَوْ تَأَمَّلْتَ أَنَّهَا ... مَنَازِل تَطوى وَالمُسَافِر قَاعِدُ

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (١/ ٩٩) وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (١/ ٢٢)

«**وَمَا هَذِهِ الأَيَّام**»؛ التي نعيشها؛ والتي عشناها «**إِلَّا مَرَاحِل**» المراحل؛ جمع مرحلة. والمرحلة المسافة وهي قديمًا مثل المحطة حـديثًا فالقطار، عنده محطات، يقطعها محطة فمحطة.

«**وما هذه الأيام إلا مراحل**»؛ محطات محطة الطفولة؛ ثم الصبا، ثم الشباب وهكذا. «**وما هذه الأيام إلا مراحل ... يحثّ بها داع إلى الموت قاصد**»؛ هذه المراحل في الدنيا تنتهي بماذا ؟بالموت.

«**يحثّ بها داع إلى الموت قاصد**»؛ أنت تمشي إلى الموت، لكن ما تدري متى تكون المحطة الأخيرة في الدنيا. الموت المحطة النهائية في الدنيا، لكن بعد الموت تنتقل إلى ماذا ؟البرزخ.

«**منازل تطوى**»؛ ينزل منزلا؛، ثم ينتقل منه إلى آخر يخلّفه وراءه بلا رجوع، ما سمعتم كلام ابن القيم أنه مسافر سفر من لا يعود.

أَلاَ لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمَاً   فَـأُخْبِرَهُ بِـمَا فَعَـلَ المَشِـيبُ

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ الله غَالِيَةٌ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ الله الْجَنَّةُ**».[1]

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠)

الوجه الثالث : أنها تولّد خلق الحياء من الله ؛ لأنه يرى نعم الله تترى عليه نازلة، وذنوبه ومعاصيه عليه مسجلة، فيعلم قدر نفسه، وتفريطه فيستحي من ربه.نعمٌ من الله لا تعد، ولا تحصى وأنت تقابلها بالذنوب والمعاصي، عندما يحاسب الإنسان نفسه، ويتأمل ذلك ينشأ في قلبه خلق الحياء من الله.

الرابع من وجوه أهمية المحاسبة : الازدياد من العمل الصالح الذي ينفعه يوم لقاء ربه.

الخامس : دوام الخشية من الله.

السادس : أنها دليل على صلاح الإنسان وخوفه من ربه.

السابع : أنها طريق للتوبة والإنابة وإصلاح العمل.الذي يحاسب نفسه فيقف على تقصيره وذنوبه يتوب.

الثامن : أنها سبب في علاج أمراض القلوب. فأنه يفتش في دخيلة نفسه؛ ليعرف حال قلبه؛ فإن وجد أمراض قلب من حسد وحقد وغل؛ سعى ليتخلص منها.

التاسع : أنها تدفع عن النفس الإصابة بالعجب والكبر والغرور. الذي يحاسب نفسه ويعرف حقيقتها، ويعرف الأمراض التي هو مصاب بها، يعرف التقصير الذي صدر منه لا يصيبه العجب، ولا

يصيبه الكبر. بل يقول كما قال بعض السلف: «لو كان للذنوب ريح ما جالسنا أحد». لكن الحمد الذي سترنا؛ -أسأل الله أن يتوب علينا-.

***

فصل

قَالَ الْحَسَنُ ﵀ : «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ - وَاللهِ - لَا تَرَاهُ إِلَّا قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ : مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَةِ كَذَا؟ مَا أَرَدْتُ بِأَكْلَةٍ كذا؟ مَا أَرَدْتُ بِمَدْخَلِ كَذَا وَمَخْرَجِ كَذَا؟ مَا أَرَدْتُ بِهَذَا؟ مَا لِي وَلِهَذَا؟ وَاللهِ لَا أَعُودُ إِلَى هَذَا. وَنَحْوُ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ**». اهـ

قال مقيده : أخرجه عنه ابن أبي الدنيا في تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ [القيامة: ٢]. أنه قال : «**لَا يُلْقَى الْمُؤْمِنُ إِلَّا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ مَاذَا أَرَدْتُ بِكَلِمَتِي مَاذَا أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي مَاذَا أَرَدْتُ بِشَرْبَتِي وَالْعَاجِزُ يَمْضِي قُدُمًا لَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ**». اهـ

قال : «**وبمحاسبة النفس يطلع على عيوبها، ونقائصها، ويمكنه السعي لإصلاحها**».

هذا أشرنا إليه. قوله : «فمبحاسبة النفس يطلع على عيوبها، ونقائصها»؛ عندما يحاسب الإنسان نفسه يقف على عيوب نفسه، وعلى نقائصه، وعلى أمراض قلبه، وحين ذاك يسعى إلى إصلاحها، وعلاجها. والهلاك في أن يهمل محاسبة النفس ويترك ذلك؛ ويسترسل

ملقيًا لنفسه القياد يلقي حبل النفس على الغارب، ويترك النفس تفعل ما تريد؛ وهذا يؤدي به إلى العطب وإلى الهلاك والخسارة العظمى.

قال الإمام الآجري ﵀ في كتابه «آدب النفوس/ ص ٢٥١» : «فإن قال قائل: لم ألزمتني هذا الحذر من النفس حتى جعلته أشد حالا من عدو وقد تبينت عداوته؟ قيل له: إن عدوك الذي يريد قتلك، أو أخذ مالك، أو انتهاك عرضك، إن ظفر منك بما يؤمله منك فإن الله ﷻ يكفر عنك به السيئات، ويرفع لك به الدرجات، وليس النفس كذلك؛ لأن النفس إن ظفرت منك بما تهوى مما قد نهيت عنه، كان فيه هلكتك في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فالفضيحة مع شدة العقوبة، وسوء المنزلة عند الله ﷻ مع سوء المنقلب في الآخرة. فالعاقل، يرحمكم الله، يلزم نفسه الحذر والجهاد له أشد من مجاهدة الأقران ممن يريد ماله ونفسه، فجاهدها عند الرضا والغضب، كذا أدبنا نبينا ﷺ في غير حديث بقوله ﷺ : «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله ﷻ». اهـ

وعن عون بن عبد الله ﵀ قال : «إذا أزرى أحدكم على نفسه فلا يقولن : ما فيَّ خير؛ فإن فينا التوحيد ولكن ليقل : قد خشيت أن

يهلكني ما فيّ من الشر وما أحسب أحداً يفرغ لعيب الناس إلا عن غفلة غفلها عن نفسه ولو اهتم بنفسه ما تفرغ لعيب أحد ولا لذمه».

اهـ

❊ ❊ ❊

فصل

قال الإمام ابن القيم ﵀ في «إغاثة اللهفان» : «**وقد اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم، وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها وتركها بمخالفتها والظفر بها. فإن الناس على قسمين :**

قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته وصار طوعا لها تحت أوامرها. وقسم ظفروا بنفوسهم فقهروها، فصارت طوعا لهم منقادة لأوامرهم.

قال بعض العارفين : انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم. فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك. قال الله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١]. **فالنفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرب يدعو عبده إلى خوفه ونهى النفس عن الهوى. والقلب بين الداعيين، يميل إلى هذا الداعى مرة وإلى هذا مرة وهذا موضع المحنة والابتلاء**». انتهى

قال أبو محمد : فالذي يُسهّل الأمور، ويمشيها ويُهمل جهاد نفسه يؤدي به ذلك إلى الهلاك، لكن عليك أن تقف مع نفسك، وأن تعرف من أين أُتيت؛ ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤﴾. «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»؛ حاسب نفسك أشد من محاسبة الشريك الشحيح لشريكه.

أرأيت لو أنك شاركت آخر في تجارة؛ وكان هذا الآخر شحيحًا حريصًا على المال، كيف سيكون الحال عند الجرد والمحاسبة سيحاسبك على كل صغير، وكبير، لا يفوت شيئًا. وأنت هكذا؛! اصنع مع نفسك لا تُفوّت شيئًا.

فإن رأيت خيرًا حمدت الله ﷻ؛ وازددت من الخير. وإن رأيت شرًا وذنبًا وتقصيرًا فعليك أن تعجل بالتوبة، وعليك أن تعرف من أين أوتيت، كيف دخل عليك الذنب، فإن الله ﷻ لا يظلم أحدًا أنت تحاسب على ما اقترفته يداك.

هذه مشكلتنا يا إخوان! ما عندنا صبر؛ سيأتي معنا قول الله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾ [النازعات : ٤٠- ٤١].

فمما يعينك على الانتهاء عن الذنوب والمعاصي؛ أن تتذكر وقوفك بين يدي الله ﷻ وأن تخاف من هذا المقام.

بعض السلف يقول: «والله، لو غفر لي ذنبي لاشتد عليّ أي يراجعني ربي في ذنب عصيته به، فإنه يكون بينك وبين أخيك الشيء فيعفو عنك فلا تزال مستحييًا من نظره إليك». هذا معنى الأثر.

أخطأتُ مثلًا في حق الأخ أنس؛ تكلمت عليه بسوء في غيبته فوصل إليه الكلام واعتذرت إليه، وعذرني ما أستطيع أن أنظر إليه.

متى ما وُفق العبد إلى محاسبة نفسه، وإلى النظر إلى مواطن النقص والقصور فيها فإنه يعمل على علاج ذلك، وعلى إصلاحه. أما إذا أهمل المحاسبة واسترسل مع نفسه، فإن هذا يؤدي به إلى الهلاك؛ وهذا هو حال أهل الغرور الذين خدعتهم أنفسهم بأن الله غفور رحيم، وأن الله واسع المغفرة. وهذا حق؛ لكن أيضًا شديد العقاب.

❋ ❋ ❋

فصل : أنواع محاسبة النفس

قال الباحث : **ومحاسبة النفس نوعان :**

أحدها : **محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذى ينبغي.**

الثاني : **أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرا له من فعله.**

الثالث : **أن يحاسب نفسه على أمر مباح، أو معتاد: لم فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحا، أو أراد به الدنيا.**

قال مقيده : معظم هذا الفصل منقول عن ابن القيم. قال : «ومحاسبة النفس نوعان»؛ هناك محاسبة للنفس قبل العمل، ومحاسبة للنفس بعد العمل. فالمؤمن قبل أن يُقدم على أي عمل فإنه يحاسب نفسه؛ إذا أراد أن يتكلم فإنه لا يعجل بالكلام. قبل أن تُخرج الكلمة من شفتيك؛ لأن الكلمة متى خرجت من شفتيك ملكتك، وقبل أن تخرج فأنت تملكها، ولكن إذا خرجت وصدرت ملكتك.

ذكروا في ترجمة العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله أنه نظَّم أنظامًا في بعض العلوم في غاية الجودة، ولكنه دفنها، قال : لأن النية كانت التفوق على الأقران.

وهذا أمر قد لا يسلم منه أحد في أثناء طلب العلم. الواحد منا يحب أن يفوق غيره، وأن يتميز عليه، وأن يبزه، فعنده أنظام نظمها، ولكنها فقدت لماذا؟ لأنه أعدمها بسبب أنه لما نظمها قصد أن يتفوق على الأقران. إذًا هناك محاسبة للنفس قبل العمل وبعد العمل .

قال : «**أما النوع الأول : فهو محاسبة النفس قبل العمل فهو أن يقف عند أول همته، وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه**».

أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال : «**رَحِمَ اللهُ عَبْدًا وَقَفَ عِنْدَ هَمِّهِ، فَإِنَّ أَحَدًا لَا يَعْمَلُ حَتَّى يَهِمَّ فَإِنْ كَانَ للهِ عز وجل مَضَى، وَإِنْ كَانَ لِغَيْرِ اللهِ أَمْسَكَ**».[1]

لقد علمنا حديث الثلاثة الذين تسعر بهم النار يوم القيامة؛ لماذا لقوا هذا الجزاء الشديد؟ لأنهم ما أرادوا بأعمالهم وجه الله عز وجل. فالعبرة ليست بحسن العمل في ظاهره فقط؛ بل العبرة بحسن العمل في ظاهره وباطنه؛ قال تعالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩/ ٤١١).

قال الفـــضيل عيـــاض رحمه الله : «أخلصه، وأصوبه. فإن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا لم يقبل وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة». اهـ

ليست العبرة بكثرة العمل؛ العبرة بحسن العمل. والعمل لا يكون حسنًا إلا بالإخلاص، والمتابعة. ولهذا قال معاذ بن جبل رضي الله عنه وغيره : «اقتصادٌ في سُنَّة خيرٌ من اجتهادٍ في بدعةٍ». اهـ

وجاء عن النبي ﷺ في وصف الخوارج : «**تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ**»[1]. هذه إشارة إلى كثرة صلاتهم وصيامهم.

ولهذا؛ أنصح الناس للناس؛ هم أهل السنة. أهل السنة ينصحون للناس ببيان ما تصح به الأعمال وتُقبل. قال الله تعالى : ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

أهل السنة يذكرون للناس ماتصح به العقيدة؛ وما يصح به المنهج. لأن أهل البدع؛ جاءت آثار عن السلف أن صاحب البدعة لا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٥٨) ومسلم (١٠٦٤)

يقبل منه صرف ولا عدل؛ أي فريضة ولا نافلة. آثار كثيرة عن السلف أن صاحب البدعة ما ازداد في العبادة اجتهادًا إلا ازداد من الله بعدًا؛ وشاهد ذلك في الخوارج.

ابن عباس ﭬ لما ذهب ليناظر الخوارج، وقرُب من معسكرهم؛ سمع لهم دويًا كدوي النحل بالقرآن. ولما رآهم؛ رأى وجوهًا قد اصفرت من السهر في العبادة، وجباهًا صارت كركبة البعير من السجود، ومع ذلك هم كلاب أهل النار... !

إذًا؛ لا بد من محاسبة النفس قبل العمل بالنظر إلى ما يصح به من إخلاصٍ ومتابعةٍ.

النوع الثاني : محاسبة النفس بعد العمل؛ وهو ثلاثة أنواع.

أحدها : محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى؛ فلم توقعها على الوجه الذى ينبغي. الطاعات نفسها؛ لا بد أن تنظر فيها بفحص وتفتيش؛ لأن بعض الطاعات فيها نقصٌ كبير.

ربنا ﻷ يقول : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ ﴾ [المؤمنون: ١- ٢]. الخشوع روح الصلاة؛ وأكثرنا -إلا من رحم الله- يصلي بلا خشوع. حتى إن كثيرًا منا ربما بعد السلام من

الصلاة الجهرية خلف الإمام لو سُئل ماذا قرأ الإمام في الركعة الأولى ما يعرف ؟يقول : والله..، لا أتذكر.

بعض الناس يشكو من ذنوب تسلطت عليه؛ وهذا يحملنا أن نرجع إلى ذكر أسباب تزكية النفس. فالصلاة؛ من أسباب تزكية النفس. ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

الآن تأمل؛ الإيمان والصلاة والأعمال الصالحة تأمر وتنهى. قال الله ﷻ : ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾. [هود: ٨٧]. ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ ﴾ [البقرة : ٩٣] والإيمان يأمر؛ الصلاة تأمر وتنهى، لكن أي صلاة؟ الصلاة الكاملة.

وهذا يتعلق بالمحاسبة؛ انظر إلى هذه الصلاة بعد العمل، راجع نفسك!، راجع أعمالك، راجع صلاتك، راجع صيامك، راجع تصدقك، راجع ذكرك، راجع دعائك، وهكذا؛ فإن رأيت نقصًا فلا بد أن تتدارك ذلك، وأن تصلحه.

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾؛ متى لم تنهك صلاتك عن الفحشاء والمنكر فاعلم أن فيها نقصًا. إذا كنا الآن نصلي الفرائض وقلوبنا في أودية الدنيا فتقول : ..الله أكبر.. خلف الإمام! وتذهب مفكراً في همومك، ومشاغلك، ومهماتك؛ وهكذا .. فيذهب الخشوع.

السؤال: «**مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ، وَالْمُنْكَرِ لَمْ تَزِدْهُ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا**»؛ حديث صحيح ؟

الجواب : ضعيف.

قال : «**النوع الثانى : محاسبة النفس بعد العمل، وهو ثلاثة أنواع : أحدها : محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذى ينبغي**». والوجه الذي ينبغي هو الإخلاص والمتابعة. انظر إلى الإخلاص والمتابعة؛ المتابعة في الصلاة يدخل فيها الخشوع.

«**الثاني : أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرا له من فعله**»؛ وهذا لا ينحصر في الذنوب والمعاصي، بل يتسع هذا المفهوم؛ ليشمل العمل المفضول الذي فوّت به عملًا فاضلًا.

ومما يدخل في هذا أيضا؛ -والله أعلم- أن يحاسب نفسه على الأعمال المحرمة والأقوال المحرمة التي وقع فيها حتى يحدث توبة؛ تكلمت بكذا، نظرت بكذا، سمعت كذا.

«**الثالث : أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرا له من فعله**»؛ بعض المباحات التي يتوصل بها للأعمال الصالحة إذا عملتها باحتساب أُجرت عليها. كما جاء عن معاذ : «إني لأحتسب نومتي كما احتسب قومتي». يعني أطلب الأجر بالنوم كما أطلبه بالقيام؛ لأني حينما أنام احتسب بالنوم أن أُجمّ النفس حتى تنشط للعبادة. وكذلك أن يحاسب نفسه في نفقته على عياله؛ لأنه متى أنفق يريد وجه الله أثيب على هذا الإنفاق.

❊ ❊ ❊

فصل

يقول الباحث : «إن الناظر إلى حال الكثير منا؛ يرى إهمالًا وتقصيرًا في محاسبة النفس واشتغالًا بعيوب الأخرين مما أورث عُجبا وتأليًا وكبرًا وغرورًا .

يقول ابن القيم ؒ : «ومن علامات الإنابة ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك، فترجو لنفسك الرحمة وتخشى على أهل الغفلة النقمة؛ ولكن ارج لهم الرحمة، واخش على نفسك النقمة. فإن كنت لا بد مستهينا بهم ماقتا لهم لانكشاف أحوالهم لك ورؤية ما هم عليه. فكن لنفسك أشد مقتا منك لهم؛ وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك. ولما كان التقصير ظاهرًا في محاسبة أنفسنا نسوق جملة من كلام السلف في هذا الشأن لعله أن يكون حافزًا للتأسي بهم». اهـ

يقول عمر الفاروق ؓ : «كفى بالمرء إثمًا أن يستبين له من الناس ما يخفى عليه من نفسه ويمقت الناس فيما يأتي». أهـ

وقال الحسن البصري ؒ : «ابن آدم إنك لا تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك وحتى تبدأ بعلاج ذلك

العيب من نفسك فتصلحه. فإذا فعلت ذلك لم تصلح عيبًا إلا وجدت عيبًا آخر لم تصلحه فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصَّة نفسك، وأحب العباد إلى الله من كان كذلك». اهـ

يقول الربيع بن خثيم ﷺ : «ألا تذكر الناس؟ فقال : ما أنا عن نفسي براضٍ؛ فأتفرغ من ذمها إلى أن أذم الناس. إن الناس خافوا الله في ذنوب الناس، وأمنوها على ذنوبهم». اهـ

وقال ميمون بن مهران ﷺ : «لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه حتى يعلم من أين مطعمه ومن أين ملبسه ومن أين مشربه؛ أمن حلال ذلك أم من حرام». اهـ

وقال عون بن عبد الله ﷺ : «ما أحسب أحدًا تفرغ لعيب الناس إلا من غفلة غفلها عن نفسه». اهـ

وقال بكر المزني ﷺ : «إذا رأيتم الرجل موكلًا بعيوب الناس ناسيًا لعيبه فاعلموا أنه قد مكر به».؛ أي قد استدرجه الله بالمكر الخفي.

قال السري السقطي ﷺ : «من علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس». اهـ

وقال أبو عثمان الحيري ﵀ : «الخوف من الله يوصلك إليه؛ والعجب يقطعك عنه واحتقار الناس في نفسك مرض لا يداوى».

اهـ

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي ﵀ : «أنفع الصدق أن تقر لله عز وجل بعيوب نفسك» ثم قال : «وسد سبيل العجب بمعرفة النفس».

اهـ

وهذه النقولات فحواها ومقصدها هو أن يُقبل الإنسان على نفسه وأن يجتهد في إصلاحها وتزكيتها ومحاسبتها وأن من الخسران الكبير أن تُهمل نفسك وما فيها من عيوب وأمراض وإن تشتغل بعيوب الآخرين.

❊ ❊ ❊

فصل

قال أبو محمد -عفا الله عنه- : من أهم مباحث تزكية النفس؛ المباحث المتعلقة بوسائل وأسباب تزكية النفس؛ والتي يجمعها التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل. فالذي يريد تطهير نفسه وتزكيتها وإصلاحها فسبيله في ذلك أن يحرص على الجمع بين العلم النافع والعمل الصالح.

ومن جملة أسباب تزكية النفس؛ الصدقة والإحسان والبذل لنفع الناس تقربًا إلى الله ﷻ. وقد أفرده الباحث -جزاه الله خيرًا- تحت عنوان؛ الصدقة. وذكر قول الله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣﴾ [التوبة : ١٠٣].

قال الطبري ؒ : ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾؛ من دنس ذنوبهم. ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، يقول : «وتنمِّيهم وترفعهم عن خسيس منازل أهل النفاق بها إلى منازل أهل الإخلاص». اهـ

نريد أن نضيف دليلًا أخر على أن الإحسان إلى الناس من أسباب تزكية النفس؛ وهو قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل: ١٤ – ١٨].

فقوله : ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾؛ هو في محل نصبٍ على الحال من فاعل «يؤتي».

أي : لا يطلب من إيتاء ماله إلا تزكية نفسه وماله وتطهير نفسه. ولهذا قال العلامة السعدي ﵀ في تفسير قوله : ﴿ٱلَّذِى يُؤۡتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ : «فقصده به تزكية نفسه وتطهيرها من الذنوب والعيوب». اهـ

* * *

فصل

قال أبو محمد : قبل أن نعلق على الآثار التي أوردها الباحث؛ نريد أن نضيف إضافات قد يكون بعضها ذُكر فيما تقدم؛ ولكنهم يقولون في الإعادة إفادة. والتكرار سبب للحفظ وإثبات المعاني العظيمة في القلوب والنفوس.

ولهذا عندنا فصل مهم في وسائل تزكية النفس أيضًا؛ الذي سنذكره قد يندرج بعضه في ما مضي؛ وذلك أننا أشرنا فيما سبق إلى أن تزكية النفس تعريفها : «أنها إصلاح النفس وتكميلها بالعلم النافع والعمل الصالح بفعل المأمورات وترك المنهيات وتطهير النفس وتخليصها من كل قبيح يبعد عن الله».

فما هي وسائل تزكية النفس؟ بالعلم النافع والعمل الصالح بفعل المأمورات وترك المنهيات. فيما سنذكره سيكون تفصيلًا لهذا الذي قد مر معنا.

من وسائل تزكية النفس - وسنذكرها إجمالاً - :

الأول : الإقبال على القرآن الكريم

فإنه منبع التزكية ومعينها. قال تعالى : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣﴾ [طه: ١٢٣].

الثاني: تحقيق الإخلاص في عبادة الله

تحقيق الإخلاص في عبادة الله ﷻ وتنقية العمل من حظوظ النفس وشوائب الرياء. قال الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤ ﴾ [يوسف: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص: ٨٢- ٨٣]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]. وإخلاص الدين لله يتضمن خشية الله ومحبته وعبادته وحده.

ثالثًا: الحرص على الاقتداء بالنبي ﷺ

الحرص على الاقتداء بالنبي ﷺ والتأدب بآدابه وأخلاقه. قال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب: ٢١]. وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

رابعًا: طلب العلم الشرعي والحرص على مجالسه

إذ العلم الشرعي؛ يُعرّف العبد بربِّه وما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى ويُرّسخ في قلبه ونفسه العقيدة الصحيحة؛ ويقوي

دعائم الإيمان، ولأنه يدله أي العلم على تفاصيل تحقيق عبادة الله التي خلق لها ووجوب إقامتها على ساق المتابعة للنبي ﷺ، ولأنه يبين له أحكام الحلال والحرام؛ ويحفظه بإذن الله من موارد الهلاك ؛ ولأنه يّثمر خشية الله في قلبه.

خامسًا : دوام استحضار مراقبة الله ﷻ

وذلك بتحقيق تقوى الله؛ قال تعالى : ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ ﴾ [العلق : ١٤]. وفي «الصحيحين» في حديث جبريل؛ قال النبي ﷺ : «**الْإِحْسَانُ، أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

سادسًا : مجاهدة النفس والهوى والشيطان

قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩]. وعند أحمد وصححه الألباني أن النبي ﷺ قال: «**الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ**». وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١ ﴾ [النازعات : ٤٠ – ٤١].

سابعًا : الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة

والتيقن أن الدنيا معبرٌ لا مستقرٌ؛ وذلك أن حبُّ الدنيا رأس الخطايا.

ثامنًا : التوبة والإستغفار

لأن الله يحب أهلها. قال الله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة : ٢٢٢].

تاسعًا : ملازمة ذكر الله ﷻ

فقد قال الله ﷻ عن أولي الألباب. قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ [آل عمران : ١٩١]. ومن وصية النبي ﷺ لمعاذ كما عند «الطبراني» : «**اذكُرِ اللهَ عِنْدَ كُلِّ حَجَرٍ وَشَجَرٍ**». هذا كناية عن إدامة ذكر الله.

عاشرًا : الحرص على الرفقة الصالحة وعلى مصاحبة الأتقياء

قال تعالى : ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾ [الكهف : ٢٨].

قال أبو محمد : اليوم قرأت تدوينة وأكتوبة لأحد الحركين من أعضاء «**الإتحاد العالمي لعلماء المسلمين**» الذي كان يرأسه «القرضاوي». ثم خلفه عليه «الريسوني»؛ ثم حملوا الريسوني لما ظهرت إقليميته وتعصبه على أن يستقيل.

أحد أعضاء «الإتحاد العالمي» يقول : النبي ﷺ لم يهاجر من مكة لأجل شركهم؛ بل لأجل ظلمهم. والصحابة لم يهاجروا إلى الحبشة لأجل توحيد النجاشي؛ بل لأجل عدله. فحيث ما وجد العدل كان الوطن !

أولًا : -بارك الله فيكم- الهجرة نوعان :

النوع الأول : هجرة من بلد الخوف إلى بلد الأمن

النوع الثاني : وهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

فهؤلاء يريدون أن يعكسوا القضية ويحرفوا الشريعة؛ ليجعلوا الهجرة من بلد الظلم إلى بلد العدل.

فعلى مقتضى تأصيله الفاسد هذا -وهم صنعوا ذلك- يُهاجر من بلاد المسلمين إلى بلاد الكفار. لأن أكثرهم كانوا في بلاد الكفار؛ فيسافر من بلاد المسلمين بزعم أنها بلاد الاستبداد والظلم إلى بلاد الكفار، بزعم أنها بلاد الحرية والعدل. وأي ظلم أقبح من الشرك ؟! وأي عدل مع الكفر ؟! ومع التعرض لخطره!.

صحيح.. قد يوجد عدل مع الكفر؛ لكن الذي يتعرض لخطر الكفر خير له أن يعيش تحت الظلم ويسلم له دينه من أن يتعرض لخسارة دينه؛ فالقوم أهل تحريف للحقائق.

وهذه مقولة قد تكون علمانية بامتياز؛ لأن من دعاوى العلمانية أنها تزعم أنها تهدف إلى تحقيق العدالة. فالقيمة العليا عندهم زعموا العدل والحرية ! وهؤلاء يرددون نفس المقولات.

قال تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف : ٢٨] ؛

فهذا أمرٌ بالصبر مع أهل الدين والتوحيد والإخلاص؛ مع فقرهم وضعفهم والبقاء معهم. قد يعسر على النفس فتحتاج النفس إلى أن تصبر عليه. وعند أبي داود أن النبي ﷺ قال : «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أحدكُم من يُخَالِل**».

الحادي عشر : الحذر من أمراض القلوب والنفوس

ومنها : العجب والاغترار بالنفس .

الثاني عشر : الصبر بأنواعه الثلاثة

وفي «سنن الترمذي» و«مسند» الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعًا : «**مَا يَزَالُ الْبَلاَءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى الله وَمَا عَلَيْهِ خطيئة**».

الثالث عشر : إغلاق المنافذ التي يُسلب الإنسان زكاة نفسه بسببها وتبعده عن الفضيلة وتوقعه في الرذيلة

فأكثر المعاصي إنما تتولد من فضول الكلام والنظر؛ وهما أوسع مداخل الشيطان على العبد. فالذي يريد تزكية نفسه فعليه أن يغلق المنافذ التي تفضي به إلى التلطخ بالذنوب والمعاصي المضعفة، أو المذهبة لزكاة النفس؛ ومن ذلك وهو سبب أكثر المعاصي فضول الكلام والنظر.

الرابع عشر : تذكر الموت ولقاء الله

قال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾ [البقرة : ٢٢٣].

وفي «سنن الترمذي» : «**أكثروا من ذكر هاذم اللذات؛ قال : الموت**».

الخامس عشر : معرفة النفس وصفاتها

وقد مر نقل عن ابن القيم في بيان ذلك.

السادس عشر : شكر الله على توفيقه للطاعات

فإن الشكر مؤذن بالزيادة. وبعض الناس يشكر الله على نعم الدنيا، ولا يشكره على نعم الدين؛ وهذا تقصير كبير.

وفي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه قال: «**فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**».

السابع عشر: التوكل على الله

والالتجاء إليه لا سيما في ترك الذنوب والمعاصي.

الثامن عشر: الحذر من القنوط من رحمة الله

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزمر: ٥٣].

التاسع عشر: الاستعاذة بالله من شر النفس.

ففي «مسند» الإمام أحمد عَنْ عثمان بن أبي العاص، وامرأةٍ، مِن قَيْسٍ أَنَّهُمَا سمعا النَّبي ﷺ قال أحدهما: سَمعتُه يقول: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي وَخَطَئِي وَعَمْدِي**»؛ وقَالَ الْآخَرُ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «**اللهُمَّ أَسْتَهْدِيكَ لِأَرْشَدِ أَمْرِي، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي**».

العشرون: الأخذ بأحكام الشرع

ومن ذلك الاستئذان عند دخول البيوت؛ والرجوع إذا لم يؤذن له. قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٢٨﴾ [النور: ٢٨].

﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ من أسباب تزكية النفس العمل بالشرع؛ ومن ذلك أن تستأذن إذا أردت الدخول على أحد؛ فإن قيل لك ارجع فارجع مطمئنًا مُسلّمًا لأمر الشرع؛ ﴿فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.

الواحد والعشرون: الحرص على صلاة الجماعة في الجمع الكثير

ففي «مسند» الإمام أحمد و«سنن» أبي داود والنسائي؛ قال ﷺ:
«وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مَعَ الرَّجُلِ أَزْكَى مِنْ صَلَاتِهِ وَحْدَهُ وَصَلَاتُهُ مَعَ رَجُلَيْنِ أَزْكَى مِنْ صَلَاتِهِ مَعَ رَجُلٍ، وَمَا كَانَ أَكْثَرَ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَى اللهِ».

الثاني والعشرون: الأمراض البدنية والصبر عليها سببًا للتزكية

ففي «مسند» أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:
«سَتُهَاجِرُونَ إِلَى الشَّامِ فَيُفْتَحُ لَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ دَاءٌ كَالدُّمَّلِ أَوْ كَالحَرَّةِ يَأْخُذُ بِمَرَاقِّ الرَّجُلِ يَسْتَشْهِدُ اللهُ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيُزَكِّي بِهِ أَعْمَالَهُمْ».

الدُّمَّلُ: القرح كالجروح.

والمَرَاقُّ: ما لَانَ، ورق من البطن؛ الموضع الذي يكون لينًا.

الثالث والعشرون : سياسية النفس

أولا : قال تعالى : ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤﴾ [القيامة : ١٤].

أنت أعرفُ الناس بنفسك؛ فاستفد من هذه المعرفة بسياسة نفسك؛ هذه النفس تحتاج إلى سياسة!؛ ذكرنا من جملة أسباب تزكية النفس أن يغلق الإنسان المنافذ التي تحرمه من زكاة نفسه؛ وأوسع هذه المنافذ إفضاءً إلى معصية الله فضول الكلام والنظر. الإنسان متى كان مهزارًا، كثير الكلام فقد دنا عطبه، وقرب هلاكه؛ جاء في الحديث الصحيح : «**مَنْ صَمَتَ نَجَا**». أخرجه الترمذي عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وفي الحديث : «**من كَانَ يُؤمن بِاللهِّ وَالْيَوْم الآخر فَلْيقل خيرًا أَو لِيَسْكُتْ**» متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ومعنى هذا؛ أنك مأمور قبل أن تُخرج الكلمة أن تنظر فيها، فعليك أن تُحكّم عقلك، ودينك فيما تتكلم به، لا أن تلقي الكلام على عواهنه.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال : قال رسُول الله ﷺ : «**كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَآخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ،**

فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ : أَقْصِرْ؛ فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ : أَقْصِرْ فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟، فَقَالَ : وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللهُ الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ اللهُ أَرْوَاحَهُمَا فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ : أَكُنْتَ بِي عَالِمًا؟ أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟، وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ : اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ : اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ». قال أبو هريرة : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ».[1]

كلمة واحدة قد تكون نابعة عن شيء من الغيرة مع العُجب؛ لكنها تخالف الشرع. من أين لك أن تقطع بأن الله لا يغفر له،! أنت تتحكم على الله ﷻ.

فمن أوسع الأبواب التي تفضي بالعبد إلى الذنوب والمعاصي فضول الكلام. ونحن الآن -مثلًا- نعرف عن أنفسنا محبة للكلام ماذا نصنع ؟ نُواتي النفس على ما تريد ! نسمح لها أن تصنع ما تشاء؟ بل علينا أن نجاهد أنفسنا حتى نزم أنفسنا وألستنا بزمام الشرع.

الكلام والغيبة؛ هذه أشياء تستريح لها النفس التي لم تؤدب بالشرع فيها لذة؛ النفس تميل إليها. وعليه فإذا عرفت من نفسك ميلًا

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠١) وأحمد (٩٢٩٢).

إلى الهذر وكثرة الكلام فعليك ألا تخالط الناس إلا في الخير، قلل من مخالطة الناس.

جاء في الحديث : «ما النجاة ؟ قال : «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ**». رواه الترمذي عن عقبة بن عامر ﷺ.

هذه هي النجاة؛ فمن عرف نفسه حمد الله على الوحدة أكثر من معرفته بالناس. الذي يعرف نفسه يعرف أن سلامته في الوحدة؛ لكن تخالط الناس في دروس العلم في الجمعة وفي الجماعة وفي الدعوة.

أيضًا من أسباب الوقوع في الذنوب والمعاصي؛ فضول النظر. ورب نظرة هيجت شرًا كبيرًا.

كُلُّ الحَوَادِثِ مَبْدَاهَـا مِنَ النَّـظَرِ وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةً فَتَكَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِها فَتْـكَ السِّهَـامِ بَلَا قَوْسٍ وَلَا وَتَرِ
وَالْمَرْءُ مَـا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَـا فِي أَعْيَنِ الغَيْدِ مَوْقُوْفٌ عَلَى الخَطَرِ
يَسُرُّ مُقْـلَتَهُ مَـا ضَرَّ مُهْـجَتَهُ لَا مَرْحَبًـا بِسُرُوْرٍ عَـادَ بِـالضَّرَرِ

وأنا -والله- عرفت أحد الناس وسرني ذلك وتعجبت له؛ أحد الشباب؛ شاب صغير، لكنه يحمل كتاب الله ﷻ في صدره. ما عنده في

جهازه إلا -التليجرام- حتى المتصفح ما عنده في جهازه؛ يُراجع فيه القرآن ويسمع فيه بعض دروس العلم.

والله.. هذا الانترنت بلاءٌ؛ أنت تبني قلبك أيامًا فينهدم بنظرة واحدة؛ كل ما بنيته ينهدم بنظرة واحدة. فإذًا لا بد أن تسوس نفسك؛ وذلك بالاجتهاد والحرص على إصلاحها.

الثاني : التدرج في ذلك؛ فإن الوصول إلى المراتب العالية لا يكون دفعة واحدة. فحتى تصل إلى المراتب العالية تدرج مع نفسك؛ لأن نفسك راحلتك التي تقطع بها الطريق إلى الله ﷻ.

الراحلة إذا أجهدتها لتصل إلى مقصدك في ساعتين لن تصل؛ ستهلك الراحلة قبل بلوغ أول المنازل. صحيح.. يعني تحتاج إلى تدرج «المنبت» مع أن الحديث ضعيف لكن معناه صحيح : «**إنّ المُنْبَتَّ لَا أرْضاً قَطَعَ وَلَا ظَهْراً أبقى**».[1]

الثالث : مراعاة أحوال النفس فإن لها إقبالًا وإدبارًا.

يجب أن تراعي أحوال نفسك؛ فإن النفس هذه قُلّبٌ تتقلب. أحيانًا تكون مقبلة؛ إذا كانت مقبلة ونشطة، وفرحة، وراغبة في الخير اجتهد معها. إذا كانت مدبرة، وخيمة ثقيلة؛ عالجها بشيء من القرآن،

(١) أخرجه البيهقي (٣٩٣١) والبزار في كشف «الأستار للهيثمي» (٧٤).

وبشيء من الذكر؛ لاتحملها ما لا تطيق؛ لأنها ربما حرنت.

الرابع : الاستمرار في التعبد مع القليل أفضل.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «**اكْلَفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ ، فَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى الله أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**».

بعض الناس مثلًا يقول : أريد أن أقوم الليل سأستيقظ من الساعة الثانية صباحًا وأصلي إحدى عشرة ركعة وأطيلها...

قام اليوم الأول؛ وترك القيام..!

وبعض علمائنا كان لا يترك قيام الليل نصف ساعة في كل ليلة حتى في حال السفر، والإجهاد. نصف ساعة..؛ لكن ما يتخلف عن قيام الليل أبدًا. فالاستمرار في التعبد مع القليل أفضل من الاجتهاد المفرط المؤدي إلى الانقطاع والترك.

خامسًا : استشعار ضعف النفس وحاجتها إلى عون الله. النفس ضعيفة وحاجتها ماسة إلى عون الله؛ ولهـذا كان أنفع الدعاء الذي يقوله العبد : ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

سادسًا : التوسط في سياسة النفس بين التشديد والتساهل. فلا تشدد على نفسك ولا تتساهل معها؛ لأنك إن شددت على نفسك

أورثك ذلك الانقطاع والضجر والملل؛ فتكون العبادة التي هي راحة القلوب من أشد الأشياء عليك، وإذا تساهلت مع نفسك أسلمت قيادها للشيطان، فإن النفس أمّارة بالسوء.

هذه بعض أسباب تزكية النفس.

***

يقول الباحث : «**إن الناظر إلى حال الكثير منا يرى إهمالًا وتقصيرًا في محاسبة النفس**».

قال أبو محمد : ولقد صدق؛ وإنا لنشكو من ذلك، من أن عندنا تقصيرًا فاحشًا في محاسبة النفس؛ بل بعضنا ربما تهرب من محاسبة نفسه. قد مر معنا قول عمر ﷺ : «**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا**».

لأنك ستحاسب؛ فحتى تسلم من المحاسبة أمام الله، حاسب نفسك، نحن مفرطون إلا من -رحم الله- في محاسبة النفس. ولكنا لا نفرط في محاسبة الغير، نحسب على بعض الناس كل صغيرة وكبيرة، نظر إليّ وفعل وقال، وترك...

اترك الناس..!

قال : «**تقصيرًا في محاسبة النفس، واشتغالًا بعيوب الآخرين**».

ولهذا قال رسول الله ﷺ : «**يُبْصِرُ أَحَدُكُمُ الْقَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ وَيَنْسَى الْجِذْعَ فِي عَيْنِ نَفْسِهِ**». رواه ابن حبان عن أبي هريرة ﷺ.

«**يُبْصِرُ أَحَدُكُمُ الْقَذَاةَ**»؛ القذاة هي الوسخ، قد يكون صغيرًا في عين أخيه.

«**وَيَنْسَى الْجِذْعَ فِي عَيْنِ نَفْسِهِ**»؛ عنده جذع في عين نفسه؛ لكن يبصر القذاة في عين أخيه. فنشتغل بعيوب الآخرين؛ وهذا يورث النفس عجبًا وتأليًا وكبرًا وغرورًا.

يقول ابن القيم ﷺ : «من علامات الإنابة؛ ترك الاستهانة بأهل الغفلة، والخوف عليهم مع فتحك باب الرجاء لنفسك».

والإنابة هذه؛ من أجل المقامات الإيمانية، وهي رجوع من المعصية إلى الطاعة ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الوحشة بالذنوب إلى الأنس بالطاعة.

وأنت إذا نظرت إلى بعض الناس؛ وما عندهم من ذنوب ومعاصٍ خفت عليهم. بينما تفتح باب الرجاء لنفسك؛ الله غفور رحيم... مع نفسك !؛ فترجو لنفسك الرحمة، وتخشى على أهل الغفلة

النقمة. وكان الأولى أن تسيء ظنك بنفسك؛ وأن تحسن الظن بالآخرين مع النصح والبيان.

ثم قال : «فإن كنت لا بد مستهينا بهم ماقتًا»؛ إذا كانوا يستحقون ذلك. وفي الحديث الذي أخرجه أحمد عن البراء بن عازب : «**أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ**».

ثم قال ﷺ : «ماقتاً لهم لانكشاف أحوالهم لك، ورؤية ما هم عليه. فكن لنفسك أشد مقتًا منك لهم»؛ نفسك أيضًا فيها ما فيها، وأنت تعرف خوافيها، وتعرف حقيقتها، فامقت نفسك في ذات الله، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك.

أخرجه ابن المبارك في كتاب «الزهد» عن خالد بن معدان قال : «لَا يَفْقَهُ الرَّجُلُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى يَرَى النَّاسَ فِي جَنْبِ اللهِّ أَمْثَالَ الْأَبَاعِرِ، ثُمَّ يَرْجِعَ إِلَى نَفْسِهِ فَتَكُونَ هِيَ أَحْقَرَ حَاقِرٍ». اهـ

لن تصل إلى الفقه حق الفقه حتى ترى الناس في جنب الله أمثال الأباعر. تعرف البعير؟ أنت في ذات الله ترى الناس مثل البعير؛ بمعنى أنك تصدع بالحق ولا تضعف ولا تخف في الله لومة لائم. لكن هل ترى الناس أمثال الأباعر وتعظم نفسك؛ ترى نفسك كالجبل ؟.

لا؛ ثم تعود إلى نفسك فتحقرها أحقر حاقر، تحتقرها أكثر من احتقارك للناس؛ لأن هذه النفس أخطر الأعداء التي تواجههم، نفسك التي بين جنبيك.

قال : «**ولما كان التقصير ظاهرًا في محاسبة أنفسنا**»؛ نسوق جملة من كلام السلف في هذا الشأن لعله أن يكون حافزًا للتأسي بهم.

يقول عمر الفاروق ﷺ : «كَفَى بِالْمُرْءِ عَيْبًا أَنْ يَسْتَبِينَ لَهُ مِنَ النَّاسِ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَمْقُتَ النَّاسَ فِيمَا يَأْتِي». اهـ

يعني هو معرفته بالناس أكثر من معرفته بعيوب نفسه. فلان هذا بخيل وجبان وحقود ولئيم؛ ولا يعين الناس وهو أشد لؤمًا وبخلًا وجبنًا، ومحبة للنفس.

وقال الحسن البصري ﷺ : «ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَنْ تُصِيبَ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى لَا تَعِيبَ النَّاسَ بِعَيْبٍ هُوَ فِيكَ، وَحَتَّى تَبْدَأَ بِصَلَاحِ ذَلِكَ الْعَيْبِ فَتُصْلِحَهُ مِنْ نَفْسِكَ». اهـ

وهذا لا يمنع من إنكار المنكر؛ حتى لو كنا مشتركين في المنكر؛ ننكر المنكر، لكن لا أشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسي. قال

تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ٤٤].

قال: «**فإن فعلت ذلك لم تصلح عيبًا إلا وجدت عيبًا آخر لم تصلحه، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك، وأحب العباد إلى الله من كان كذلك**».

اشتغل بعيوب نفسك واعمل على التخلص منها؛ والتخلص من العيوب يحتاج إلى سياسة للنفس؛ بمعنى أنت قد تكون متصفًا بالبخل تحتاج أن تروض نفسك حتى تتصف بالكرم والسخاء. أنت متصف بالحقد عندك حقد على الناس، داوِ قلبك، جاهد نفسك لتتخلص من هذا المرض. وهكذا.. فتش عن عيوب نفسك! واشتغل بعلاجها، وإصلاحها.

وقيل للربيع بن خثيم رحمه الله: «أولا تذكر الناس؛ فقال: ما أنا عن نفسي براضٍ فأتفرغ من ذمها إلى أن أذم الناس». اهـ

أنا لست راضٍ عن نفسي؛ لأني أعرف عنها ما أعرفه من النقص والقصور حتى أتفرغ لذم الناس. ولكن اليوم الناس –إلا من رحم الله– بالعكس؛ تركوا عيوب أنفسهم، واشتغلوا بعيوب الآخرين.

إن الناس خافوا الله في ذنوب الناس، وأمنوها على ذنوبهم. والله؛ أشياء عجيبة جدًا جدًا.. أشياء عجيبة. وسأذكر لك مثالًا : القرافي؛ فقيه كبير من فقهاء المالكية؛ وأصولي ضليع ولكنه أشعري.

تجد بعض من فيهم غلو في التجريح؛ يطعن على بعض السلفيين بزعم أنه نقل عن فلان ممن لم يقطع بانحرافه .. فلان نقل عن فلان في كتابه... أنا بالأمس؛ أتصفح في كتاب مفيد؛ لكن عنونه صاحبه بمجموع الآثار السلفية، وإذا بي أجده من جماعة الشيخ الحجوري -هدانا الله جميعًا-، وقدم لهذا الكتاب الشيخ الحجوري. والكتاب معنون «بجامع الآثار السلفية»، وإذا بي أجده ينقل عن القرافي، والقرافي سلفي.. !؟

يعني؛ القرافي معروف بأشعريته..، تكتب في «جامع الآثار السلفية» وتنقل عن القرافي ؟!؛ هذا لو حاكم غيره لبدعه بسبب هذا، لو حاكم غيره، وغيره وقع في هذا ربما بدعه.

وقال ميمون بن مهران ﵀ : «لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه حتى يعلم من أين مطعمه، ومن أين ملبسه ومن أين مشربه، أمن حلال ذلك أم من حرام؛ وحتى يحاسب نفسه في لحظاته في نظراته في لفظاته فيما يسمعه في خطراته». اهـ

في كتاب «الزهد» للإمام أحمد عن وهب بن منبه قال: «إِنَّ مُوسَى قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ائْتُونِي بِخَيْرِكُمْ رَجُلًا فَأَتَوْهُ بِرَجُلٍ، فَقَالَ: أَنْتَ خَيْرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: كَذَلِكَ يَزْعُمُونَ. قَالَ: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِشَرِّهِمْ قَالَ: فَذَهَبَ، فَجَاءَ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، فَقَالَ: جِئْتَنِي بِشَرِّهِمْ؟ قَالَ: أَنَا مَا أَعْلَمُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَا أَعْلَمُ مِنْ نَفْسِي؛ أَنَا مَا أَعْلَمُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَا أَعْلَمُ مِنْ نَفْسِي». اهـ

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [القيامة: ١٤]. كلنا يعرف على ماذا نغلق عليه أبوابنا.

قال: «أَنَا مَا أَعْلَمُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَا أَعْلَمُ مِنْ نَفْسِي، قَالَ: أَنْتَ خَيْرُهُمْ»؛ الذي يزري على نفسه، ويحتقرها في جنب الله؛ هذا من خير الناس. «قَالَ: أَنْتَ خَيْرُهُمْ».

وقال عون بن عبد الله رحمه الله: «ما أحسب أحدًا تفرغ لعيب الناس إلا من غفلة غفلها عن نفسه». اهـ

وقال بكر المزني رحمه الله: «إذا رأيتم الرجل موكلًا بعيوب الناس ناسيًا لعيبه فاعلم أنه قد مكر به»؛ أي قد استدرجه الله بالمكر الخفي.

قال السري السقطي: «من علامة الاستدراج؛ العمى عن عيوب النفس، والاشتغال بعيوب الناس». اهـ

وقال أبو عثمان الحيري : «الخوف من الله يوصلك إليه». اهـ

الخوف من الله ﷻ ومعه الحب والرجاء هي محركات القلوب إلى الله. والخوف المحمود هو الخوف الذي يحجز عن معصية الله ﷻ. فإن الخوف من الله من أسباب الفوز بالجنة. قال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن : ٤٦].

بل الخوف من الله ﷻ من أسباب التمكين في الأرض. قال تعالى : ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٤]. تريد أن تصل إلى الله خف من الله.

قال : «**والعُجب يقطعك عنه**»؛ العجب هو تعظيم النفس والنظر إليها بعين الكمال؛ يُخْشى على من فتح له شيء من أبواب العلم والعمل والدعوة إذا لم يتداركه الله برحمته أن يصاب بالعجب.

«**واحتقار الناس في نفسك مرض لا يداوى**»؛ تحتقر الناس هذا مرض مهلك يعسر علاجه.

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: «**أنفع الصدق أن تقر لله ﷻ بعيوب نفسك**»؛ أن تصدق مع الله، وأن تقر بعيوب نفسك محاسبةً لها.

ثم قال ﷺ : «**وسد سبيل العجب بمعرفة النفس**»؛ تريد تسد سبيل العجب اعرف نفسك، وما فيها من نقص، وقصور، وضعف.

(هذا ما يسر الله جمعه في هذا الموضوع العظيم؛ وهو جهد المقل والله الموفق لكل خير).

* * *

الفهرس

❊ ❊ ❊